لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

الشّعرانى

إمام التصوّف فى عصره

الدكتور توفيق الطويل

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

مقدمة

عشت مع صوفية العصر العثمانى فى مصر أعواماً طوالاً ، ثم انشغلت عنهم بوجوه من البحث، تقترب منهم حيناً وتبتعد عنهم أحياناً ، وكانت النفس تنازعني - إبان هذه السنين - إلى معاودة النظر فى تصوفهم ، والتأمل فى التجارب الروحية التى عاشوها ، والحياة المادية التى زاولوها ، يُغذى وقدةَ النزوع عندى ، ظلامُ الجو الذى اكتنف عصرهم ، وغرابة الأطوار التى أحاطت حياتهم ، ولذّة الارتياد فى المناطق المجهولة من دنياهم .

وقد كان إمامهم الذى التقت عنده زعامة الطريق وصدارة العلم فى عصره: عبد الوهاب الشعرانى ، أو الشعراوى فيما يسمى أحياناً ٨٩٨ — ٩٧٣ هـ — (+١٥٦٥ م) ولهذا آثرت أن أفرده بهذا الكتيب المتواضع .

ولكن هذا موضوع بِكْر ، لم يهتك البحث العلمى المفصل ستره ، ولهذا تحريت أن أتسلل إليه من أقرب أبوابه ، فعنيت عند دراسة الشعرانى بما وقع لى من آثاره ، ما طبع منها وما لم يزل مخطوطاً ، مع توَخّى الاهتمام بدراسة الصوفى من هذه المؤلفات ، واستعنت - بعد هذا - على كمال فهمه بما كتبه تلامذته ومن قرب عهدهم به من الكُتّاب ، وحرصت - مع هذا -

على الاطلاع على أبحاث المستشرقين والشرقيين الذين عرضوا لدراسته ، وما أقل ما كتبوا عنه ، وخُلُوّ أكثره من كل غَناء ، ومن أجل هـذا ــ وتمشياً مع منهج البحث العلمى ــ احتَلَّتْ كتبه المكان الأول فى دراسته .

على أنى قد حرصت على أَنْضُوَ عن هذا الكتاب جفاف البحث العلمى ، وحاولت أن أخلع عليه مسحة من جمال التصوير الفنى ، ومع هـذا توخيت فيه التزام الدقة العلمية ما استطعت إليها سبيلاً ، وليس أحب إلىَّ من أن يكون هذا الكتيّب ، حلقة أولى فى سلسلة كتب تربى عليه عمقاً وشمولاً ، وحسبى منه أن يكون مثار التفكير عند جمهرة القراء والباحثين على السواء .

توفيق الطويل

الإسكندرية فى { شعبان ١٣٦٤ هـ
يوليو ١٩٤٥ م

لمحة إلى عصر الشعراني

معالم عصره

أقبل القرن العاشر للهجرة ، وحكم المماليك يؤذن بالمغيب ، ومصر تتأهب لاستقبال الحكم العثمانى ، وكأنما سبقته إليها مواكب الضنك والظلم والجهل والفساد .. ! فسدت أداة الحكم واضطرب الأمن ، واكتشف رأس الرجاء الصالح ، فانطوت مصر على نفسها ، واعتزلت العالم الأوربى ، فى وقت كان يعجّ فيه بنهضة تستغرق مرافق حياته ، وتشيع فى أهله الكلف بالعلم ، والنزوع إلى الفكر الحر[1]

ولما نزل العثمانيون بمصر ، أزالوا عنها خلافة الإسلام ، وأفقدوها زعامتها على دوله ، وزادوا أمنها اضطرابا ، وحكمها فسادا ، وعيشها ضنكا ، إذ أرهقها غزاتها بمغانمهم ، ومظالمهم فى العبث بالناس ، وفرض الضرائب واغتصاب الخراج والهدايا عنوة واقتدارا ، ونقلوا خيرة صناعها إلى الآستانة ، وأهملوا

---

(١) للتباين الملحوظ بين نهضة أوربا وركود العالم الإسلامى فى ذلك العصر ، أنظر E. J. W. Gibb, A Hist. of Ottoman Poetry ج ١ ص ٥ وكذلك Nickolson, A Litt. Hist. of the Arabs ص ٢٤٣

الزراعة ووجوه إصلاحها ، وأخلفوا سنة المماليك فى رعاية العـلم ، فاستفحل الجهل واستشرى فى البلاد طولا وعرضا .

وكان المثل الأعلى للعلم ، لا يكاد يتجاوز الدين وعلومه النقلية ـ من فقه وتفسير وحديث ـ واللسانية ـ من نحو و بيان ولغة ـ وجمدت الدراسات حتى تحول التأليف إلى شروح على متون ، أو تعليقـات على شروح ، وركدت العلوم العقلية حتى أضحى طلبها فرض كفاية ، متى قام به البعض سقط عن الباقين .. ! وانحصرت مراكز الثقافة فى الأزهر ومجالس الوعظ فى المساجد وزوايا الصوفية[1]

وفى هذا الجو المعتم نشأ أبوالمواهب عبدالوهاب الشعرانى (٨٩٨ ـ ٩٧٣هـ) عملاق عصره علمـا وتصوفا ، صحب حكم المماليك فى مصر حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، ثم قضى فى صحبة الحـكم العثمانى خمسين عاما طوالا ، تلقى فيها العـلم عن صفوة معاصريه وأسلافه ، من رجال الشرع وأرباب التصوف ، والتقت عنده آلام بيئته وآمالها ، ثم ارتدّت فيضا من المعلومات ، حفلت بها عشرات الـكتب ، وضعها فى شتى فروع العـلم فى أيامه ، فـكان روح عصره ، وطابع الأجيال التى أعقبته ، فلنقف قليلا عند

---

(١) ابن إياس ومحمد فريد أبو حديد (سيرة السيد عمر مكرم) والرافعى وما أورده من مصادر فى تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٤٥٠ وما بعدها طبعة أولى .

التصوف فى عصره

فسد الجو فى مصر قبل العصر العثمانى وفى إبانه ، على ما أشرنا منذ حين، فاستجاب الناس لهذا الفساد بالتصوف ..! افتقدوا الحاكم القوى الذى يؤمنهم على نفوسهم وما ملكوا ، فلاذوا بالله ، والتمسوا العدالة فيما وراء الدنيا ، حيث لاظلم ولافساد ، ومن هنا كان الكلف بالتصوف ، والإقبال على أهله. وقوّى من هذا النزوع الصوفى ، ما خضعت له مصر من الدعوات السرية التى فشت فى أرضها منذ أيام الفاطميين .

والأصل فى التصوف ـ فيما يقول ابن خلدون « العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة[1] » ثم أدركته العناية بالأبحاث العقلية ، ونزع البعض إلى إقامته على أسس فلسفية ، وأخذت تظهر عند أهله النظريات الفلسفية فى المعرفة والوجود ، ولكنها كانت لاتساير المألوف عند السلف ، فتنكر لهذا النوع من التصوف أهل السنة فى العالم الإسلامى ، وضاقوا بالنظريات الفلسفية الجامحة، التى يأوى إليها المتطرفون ممن انتهوا إلى القول بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود ، وتصدى الأشاعرة لإنكار هذا الجموح ، وهاجموا الفلاسفة والمعتزلة ـ دعاة التأويل فى نصوص الكتاب ـ وانتصر لحملتهم حجة الإسلام « الغزالى » ، ولكنه

---

(١) ابن خلدون فى مقدمته ص ٤٠٨ طبعة المطبعة البهية بمصر .

أبقى على التصوف الذى يساير التعاليم الدينيـة ويتمشى مع روح السنة ، وسرعان ماغلب هذا النوع من التصوف المساير لمبادئ السنة ، على التصوف القائم على النظرات الفلسفية الدقيقة ، وانتهى هـذا النزوع إلى إيثار العمل على النظر ، وتغليب التعبد على التأمل ، ومن هنا رجح الاهتمام بالسلوك ، وما يقتضيه من وجوه الطاعة وتربية النفس والزهد والتقشف والحرمان والزلفى إلى الله ، وكاد ينطفىء الجانب النظرى فى العالم الإسلامى ، قبل مجيىء العصر العثمانى بنحو ثلاثة قرون .. ! وبهذا عاد التصوف فى مرحلته الأخيرة ، إلى ما كان عليه فى مرحلته الأولى . وسنعود إلى بيان هذا فى الفصل الذى سنعقده عن الحياة العلمية . وما أقبل العصر العثمانى حتى كانت مصر قد عرفت كثرة من « الزوايا » التى ينشئها لشيوخ الطريق أهل اليسار ، ليقيموا فيها مع أتباعهم جماعات ، منقطعين لعبادة الله ، متجردين لذكره ، معرضين عن الدنيا ، زاهدين فى وجوه اللذات ، منصرفين إلى التفقه فى الدين والعلم بأحكامه ، فأخذت هذه الزوايا مكان الخوانق والرّبط ، فى عصر الأيوبيين وسلاطين المماليك فى مصر[١] ، فقد تلاشت هذه المعابد حين نزلت بمصر المحن ، قبل بدء العصر العثمانى ، وقد كان أهلهـا : يقيمون على طاعة الله ، يدفعون بدعائهم البلاء عن العباد والبلاد ، وشرائطهم قطع المعاملة مع الخلق ، ووصلها بالحق ،

---

(١) المقريزى فى خططه ج ٤ ص ٢٧٣ وما بعدها وعلى مبارك فى خططه ج ١ ص ٨٩ وما بعدها .

وترك الاكتساب ، اكتفاءً بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات ، واجتناب التبعات ، وانتظار الصلوات ، واتقاء الغفلات ... إلى آخر ما يقوله السهروردى والمقريزى معا[1] . وقد كان هذا هو الغرض الذى كانت تنشأ من أجله زوايا الصوفية قبيل الحكم العثمانى و بعده .

على أن فساد الجو ، وضنك العيش ، وشيوع الجهل ، قد أغرى الكثيرين من الأدعياء باحتراف التصوف ، واتخاذه أداة للكسب ، ووسيلة لاتّقاء المظالم ، وطريقا إلى اقتناص السمعة الطيبة ، والمركز الملحوظ ، والجاه العريض .

وأقبل على هؤلاء الأدعياء ، أهل الغفلة من الناس ، وما كان أكثرهم .. فاختلط الدجالون بالصادقين من أهل الطريق ، و بدأت هذه الظاهرة منذ أواخر عصر السلاطين ، وامتدت إلى العصر العثمانى ، وقد ازداد تيارها قوة ، ومعالمها وضوحا ، حتى كادت أن تخفى من التصوف الصادق صفحته المشرقة الوضاءة ، فأما الصادقون من أهل التصوف ، فقد أخذوا يزاولون ما يقتضيه الطريق من شعائر الدين و يستلزمه من التفقه بأحكامه ، و يتطلبه من التجرد لذكر الله ومواصلة عبادته . وأما الأدعياء ــ وكان صوتهم غلاّبا ــ فقد استغلوا سذاجة الناس ، وعملوا على التمكين لنفوذهم ، حتى إذا تمّ لهم ما أرادوا ، جهروا بالتمرد على أبسط قواعد الدين وأوضاع العرف ، مُدّعين سقوط التكاليف الدينية عن كل « واصل » ، وكانوا بعد هذا فى أمان !

---

(١) السهروردى فى عوارف المعارف ص ٥٤ وما بعدها والمقريزى ج ٤ ص ٢٩٢ وما بعدها

دلالات التمرد على الدين باسم التصوف :

ومن دلالات هذه الظاهرة الطريفة ، أن يجلس الشيخ شعبان المجذوب على كراسى المساجد أيام الجمع وغيرها ، ويقرأ ما يزعم أنه قرآن كريم .. ! وقد سمعه الشعرانى يقول على طريقة قرّاء القرآن فى البيوت: « وما أنتم فى تصديق هود بصادقين ، ولقد أرسل الله لنا بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا، وما لنا من ناصرين ، » ثم يعقب على هذا قائلا : اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان ! ويعلق الشعرانى على ترجمته قائلا : « ولم أسمع قط أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله ، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم[1] » !

وكان إبراهيم العريان يصعد إلى منبر المسجد عاريا ، ويخطب فى الناس قائلا : السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين ، وجامع طولون والحمد لله رب العالمين » فيحصل للناس «بسط عظيم» فيما يروى الشعرانى[2] !

وهذا بالإضافة إلى التهاون فى فرائض الدين والاستخفاف بأوامره ونواهيه، ومن شواهد هذا أن يمكث الشيخ تاج الدين الذاكر بوضوء واحد سبعة أيام امتدت أواخر عمره إلى أحد عشر يوماً[3] .. !

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦٠ طبعة عام ١٣١٧ هـ وعلى مبارك ج ٦ ص ٣٣ .
(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٤
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١١٣

و يتوضأ « أبو السعود الجارحى » أول رمضان فلا يعيد الوضوء إلا بعد العيد بستة أيام[١] ..! ويتعقب « أبو خودة » وغيره من أدعياء الطريق ، حسان الغلمان والنساء ، آمنين شر الإنكار من سوء ما يفعلون[٢] ..! ولهؤلاء جميعاً أضرحة فى مصر تزار ، وتلتمس « البركة من أهلها » ..!

على أن هذا كله ، لا ينبغى أن ينسينا أمر الصادقين من أهل التصوف فى هذه الفترة ، فقد أقاموا على ذكر الله وطاعة أوامره ، والاستجابة لنواهيه ، وخفوا لفعل الخير كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، فكانت زواياهم مراكز للعبادة والتثقيف وتطهير القلوب وتنقية الضمائر وتهيئة النفوس ـ بعد تصفيتها ـ لإذاعة الخير والمعروف يميناً ويساراً . ولكن كيف كانت الحياة فى هذه الزوايا ..؟

زوايا الصوفية وحياة المجاورين فيها

هى معابد تشبه ـ من بعض الوجوه ـ أديرة المسيحيين وقد فَشَتْ فى أرض مصر ، واجتذبت إليها الألوف من أهلها ، أقامها شيوخ الطريق ، أو

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٤

ملحوظة : أكثر المخطوطات رقمت أوراقها لاصفحاتها ، وقد أشرنا بعلامة + إلى الصفحة المقابلة للصفحة المرقمة

(٢) الطبقات الوسطى ص ٢٤٣ و + ٢٤٤ والكبرى ج ٢ ص ١١٨ وقارن الطبقات الصغرى ص ٨٨ والغزى فى الكواكب السائرة ج ٢ ص ٢٥٩

شادها لهم ولأتباعهم الأمراء وأهل اليسار من المحسنين ، ممن استبدّ بهم الإعجاب بهؤلاء الشيوخ .

وقد ضمت هذه الزوايا المجاورين من مُريدى الشيوخ ، وعاشوا فى كنفها مع زوجاتهم وأولادهم طاعمين كاسين ، من فيض ما كان يحبس عليهم من الأوقاف ، ويجزل لهم من العطاء ، ويجرى عليهم من الأرزاق ، لأن أصحاب الأملاك منهم ، قد تخلوا عنها جميعاً يوم انضموا إلى زمرة المجاورين ، وكانت الزاوية الواحدة كثيراً ما تضم من هؤلاء بضع عشرات ، وقد يرتفع العدد فى بعض الأحيان إلى عدة مئات[1] ! ومن هنا مست الحاجة إلى وجود كثرة من النقباء ، قد يبلغون العشرة فى الزاوية الواحدة ، يتولون توزيع الطعام ، وتقسيم الهدايا ، ومراعاة آداب الغذاء ومقتضيات الكساء ، وحصر صدقات الشيوخ على المعوزين ، وحفظ النعال ، وسقى الماء للذاكرين وترتيب مجالس الذكر عند غياب الشيخ ونحو هذا مما تقتضيه حياتهم .

وكان لكل نقيب عمل يختص به ويقوم على أدائه ، ملتزماً مراعاة آدابه وشروطه ، فمن هذا حرص نقيب النعال على صيانتها وحسن استقبال أهلها ، واتباع ساقى المياه شروط النظافة واختيار الوقت الملائم لأداء مهمته ، وتوخِّى نقيب السماط مراعاة النشاط فى عمله ، وتنبيه غيره إلى آداب الطعام ،

(١) الطبقات الوسطى + ٢١٣ والكبرى ج ٢ ص ٧٥

والتزام نقيب الحضرة للبشاشة عند استقبال الزائرين ، و إيقاظ الفقراء للتهجد ليلاً[١] إلى آخر ما تفصله مصادر هذا العصر .

و إلى جانب النقباء وُجد قراء وأئمة ومؤدبو أطفال وخزائن كتب ، لأن الزوايا كانت معاهد للعلم الشائع فى هذا العصر ، حتى لقد كان بعض شيوخ الطريق يفاخرون بأن العلم والحكمة إنما تلتمس فى رحاب زواياهم ، وضمت الزوايا ـ مع هؤلاء ـ « بلانات » يقمن برعاية الزوجات ، وقضاء ما ظهر من حاجاتهن وما بطن ، وزودت بالحمامات والمدافن والمراحيض والخلوات والآبار والمطاهر ونحو هذا مما سنعود إلى بيانه عند الحديث على زاوية الشعرانى .

وكان لشيوخ الطريق مكان ملحوظ مرموق بين الناس ، وقد بدت آيات الصدارة عندهم فيما توافر لهم من مظاهر النفوذ ، فاقتسموا أرض مصر و باشروا سلطتهم فى مناطقهم حكاما روحيين ، وكانت هذه المناطق تتمشى فى السعة والضيق ، طرديا مع سمعة الشيوخ ونفوذهم ، واتساع قدرتهم على اجتذاب الناس والاستبداد بهواهم .

أما تهافت المجاورين على الإقامة فى زوايا الصوفية ، فمردّه إلى عوامل ، أكبرها خطرا شيوع التصوف ردا على فساد الحياة ، وتعذر احتمال مؤثراتها ، والعجز عن مواجهة مظالمها ، و يلى هذا ما يترتب على هذه الحياة من وجوه

---

(١) السمنودى فى تحفة السالكين ص ١٢٧ ـ ١٣٥

النفع الدنيوى ، فهى تعفيهم من متاعب العمل ، وتوفر لهم أسباب الراحة ، وترد عنهم عادية الجنود الذين كانوا يعيثون فى الأرض فسادا ، وتقيهم مظالم الجباة وأعوانهم ، وأين حياة أرباب الطريق الخلو من التبعات ، من حياة الفلاح الذى كان إذا أقعده العجز عن دفع الضرائب ، انتزعت أرضه وعذب « بالمقارع والكسارات وعصر الرأس و إمرار الطونس على ظهره ، و إدخال البوص بين الظفر واللحم ، والتعليق ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس[1] » .؟ وليس غريبا أن تكثر زوايا الصوفية من المسلمين فى مصر ، فقد حفلت صحاريها وكهوفها ومغاراتها برهبان النصارى منذ زمان طويل مديد .

وفى هذا الجو عاش الشعرانى ، أكبر من حملت أرض مصر فى عصره من أهل العلم وأرباب الطريق ، فلنشرع فى الترجمة له .

---

(١) المليجى فى المناقب الكبرى ص ١٣١

الباب الأول

سيرة الشعراني عالماً وصوفياً

أشرنا فى اللمحة السالفة إلى روح العصر الذى عاش فيـه الشعرانى ، وتتبعناها خلال التصوف داخل الزوايا وخارجها ، ما صدق منـه وما كان ادعاءً . ونريد فى هذا الباب أن نعرض شيئاً من سيرة هذا الرجل منذ نشأ طفلا حتى استقام إماماً لأهل زمانه ، وأن نتتبعه فى تجاربه الروحية التى عاش فيها ، منذ تدرج فى مراتب العـلم الشائع فى عصره ، حتى ترقِّيه فى مقامات السلوك إلى ربه ، معنيين بالحديث عن حيـاة المريدين فى زاويته ، لإيضاح جانبها الروحى الوضىء ، أو الـكشف عن وجهها المادى الذميم ، حتى إذا نَضَوْنا ما ران على حياته من غموض ، عقبنا فى الباب الثانى بشرح علاقاته مع معاصريه ، عسى أن يضىء هذا ما بقى غامضاً من سيرته .

الفَصلُ الأوّل

سِيرَتُه

ينحدر الشعرانى عن قبيلة بنى زُغْلة من عرب المغرب ، يتصل نسبها بالإمام على ابن أبى طالب ، وكان جده أبو عبد الله أحمد الزُّغْلى ، سلطان تلمسان المغرب وما والاها ، وقد تصوّف أحد أبنائه ـ موسى أبو العمران ـ وآثر طريق الله على السلطنة ومجدها ، وسلك على يد الإمام أبى مدين التلمسانى بعد أن نضا عنه نسبه ومُلكه وشرفه ، فأرسله هذا الإمام فيمن أرسل من أتباعه ، لتربية المريدين فى صعيد مصر ، فمات هناك عام ٧٠٧ ﻫ ، ثم هاجر حفيده « أحمد » إلى ساقية أبى شعرة (وهى قرية بالمنوفية تجاه النيل) وشاعت عنه الولاية رغم أُمّيته ، ومات (عام ٨٢٨ﻫ) ودفن بمهجره ، وكان حفيده أحمد ـ والد عبد الوهاب الذى نؤرخ له فى هذا الكتاب ، على حظ من العلم الذى شاع فى عصره ، وقد رحل إلى مصر ومعه ابنه عبد الوهاب ، وطلب إلى جلال الدين السيوطى أن يجيز ابنه ، فأجازه بكافة مروياته ، وهو فى

غضون العاشرة من عمره ، وألبسه خرقة الصوفية فى روضة المقياس بالقاهرة وهو لا يزال صبيا . ومات أحمد عام سبع وتسعمائة للهجرة ، ودفن مع والده فى زاويته بساقية أبى شعره .

وكان ابنه عبدالوهاب لايزال صغيرا ، فكفله أخوه عبدالقادر + ٩٥٦ وكان متصوفا ورعا منصرفا عن دنياه ، مشغولا بخدمة المعوزين والمحتاجين .

أما عن ميلاد الشعرانى ، فقد سبق مطلع القرن العاشر ـ للهجرة ـ بعامين[١]، وكان مولده فى قلقشندة ـ قرية جده لأمه، ثم انتقل بعد أربعين يوما إلى قرية أبيه ، وإليها انتسب ، فسُمى بالشعرانى أو الشعراوى كما ورد فى بعض آثاره[٢]

وقد ذهب المستشرقان « كريمر » و « نيكلسون » إلى أنه كان يحترف الحياكة ، ولعل الأصح ماقاله المستشرق « ڤولرز » من أن حياته كانت زاخرة بالعبادة حافلة بالتعليم ، فلم يكن من الميسور أن يجد وقتا يحترف فيه عملا .

---

(١) الراجح أنه ولد فى ٢٧ رمضان ٧٩٨ هـ كما جاء فى المناوى وعلى مبارك والمستشرق شاخت Schacht ، ولا صحة لما جاء فى تكميل النور السافر أو فى المناقب الكبرى أو غيرها .

(٢) عرض لمناقشة هذا المستشرقون « ڤولرز » Vollers فى مجلة الدراسات الشرقية .ZDMG ع ٤٤ ص ٣٩٠ و « فلوجل » Flügel فى ع ٢٠ ص ٩ ، ع ٢١ ص ٢٧١ و « كريمر » Kremer فى مجلة .JAP ع ١١ من المجلد السادس ص ٢٥٣ والمناقب ص ٣٨ ـ ٣٩

وقد غادر قريته إلى القاهرة فى مطلع العام الحادى عشر من ذلك القرن ، وفيها أصاب فيضا من العلم ، على كثرة من شيوخ القاهرة فى صدر شبابه ، وأقام بالجامع الأزهر ملازما شيخه « على الشونى » نحو خمس سنين ، ثم غادر الأزهر بمشورة شيخه إلى الجامع الغمرى عام ٩١٩ هـ ولبث به سبعة عشر عاما ، تحول بعدها إلى مدرسة أم خَوَنْد ، بخط كافور الأخشيدى ، وفيها استطارت شهرته ، وثار حقد خصومه وحساده .

وفى خلال هذه المدة ، اتصل بأساتذة العلم فى القاهرة يومذاك ، وكان منهم جلال الدين السيوطى وزكريا الأنصارى ، وناصر الدين اللقانى ، والسمنودى ومن إليهم ، ممن استغرق ذكر أسمائهم بضع صفحات من القطع الكبير . وقد روى عن نفسه أنه حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، والتزم القيام بالصلاة وهو ابن ثمان ، وأنه كان يتلو القرآن كله فى الركعة الواحدة قبل أن يبلغ سن الرشد ، وأنه كان معصوما من آفات عصره .. إلى آخر ما يرويه عن نفسه ، مما يبدو إغراقا لا يساغ فى رأى العقل .

وقد كان الشعرانى واسع الإلمام بعلوم عصره ، محيطا بما وقع له من كتب البارزين من أهلها ، قدامى ومعاصرين ، وقد عرض لذكر ما درسه على أيدى شيوخه من مختلف المصنفات فى شتى العلوم ، وأبان عن الكتب التى درسها بنفسه ، وراجع العلماء فيما أشكل عليه منها ، فى التصوف والفقه

والتفسير والحديث والسِّيَر واللغة والقواعد والأصول وغيرها[١] ، وصرح مفاخرا بأنه لا يتصور أحدا من أهل عصره قد أحاط بها علما ، وأن أحد الحسدة قد كتب سؤالا يتصل بفقرات وردت فى كتاب العهود ، وقدمه إلى شيخ الإسلام ـ الفتوحى الحنبلى ـ فامتنع عن التعليق عليه ، بحجة أن الشعرانى قد قرأ من الكتب ما لا يعرف له اسما ، وأنه لو ادعى تأليفها ما وجد فى مصر منازعا ، وقد قيل إنه خلف ثلاثمائة كتاب ، تناولت الطب والنحو والتفسير والفقه والتصوف وغيره ، وقد استغرق بعضها خمسة مجلدات ، ووقع الكثير منها فى مجلدين كبيرين ، ولكن «على مبارك» يقرر بأن مؤلفاته قد بلغت السبعين كتابا ، وليس هذا ببعيد ، فإن له الآن فى دار الكتب الملكية بالقاهرة نحو خمسين سفْرا ، أكثرها لا يزال مخطوطا ، وقد أحصى له « بروكلمان » Brockelmann أكثر من ستين كتابا ، توجد اليوم نسخ منها ـ مخطوطةً ومطبوعةً ـ فى دور الكتب فى أرجاء العالم[٢] وقد تضمنت من فيض المعلومات ما يشهد بقوة ذاكرته ، وقدرته على استيعاب ما يقرأ وما يسمع .

وقد استقى الشعرانى التصوف عن خيرة من عُرِف فى هذا العهد من أربابه ، ونزع إلى مزاولته قبل أن يسلك على أرباب الطريق ، فراض جسمه

(١) فصلت المناقب الكبرى فى بيانها ص ٤١ ـ ٥٢

(٢) بروكلمان ج ٢ ص ٣٣٥ ـ ٨ والملحق ج ٢ ص ٤٦٤ ـ ٦

على احتمال المكاره ، وعانى فى كبح شهواته وردّ رغبـاته حتى عن الحلال المباح، وأسرف فى ذكر الله حتى علق فى سقف خلوته حبلا يطوّق عنقه متى جلس ـ منذ العشاء حتى مطلع الفجر مدة بضع سنين ـ ليأمن سنات النوم وغفـلاته ، فإن غالبه النعاس ، نزل المـاء البارد بثيابه ، أو ضرب بالسياط أفخاذه(١)

ولزم مظاهر الزهد فى مأكله وملبسه واتصاله بالناس ـ علت مراكزهم أو تضاءل شأنهم ، واشتـد فى محاسبة نفسه ، حتى ساوره الظن بأنه افتقد الحلال ، وطعم التراب شهرين ، لذ فيهما مذاقه حتى خاله لحما وسمنا ولبنا . . ! وتجنب مواطن الظنة والرِّيَب فى مأكله ، و بالغ فى الحرمان حتى زهـد فيما أباحه الشرع من ألوان المتع ، وتحامى الاقتراب من أملاك الظلمة من الولاة والأمراء ومن إليهم ، فلما وصل إلى هـــذا المقام ، خال فى نفسه القدرة على التمييز بين الحلال والحرام بمجرد النظر ..! فأخذ يهيم على وجهه ملتمسا المهجور من المساجد والخرب من الأماكن ، يقر فيها مطيلا صلاته مكثرا من ذكر الله، يتحرى الصيام و يتوخى مجاهـدة النفس وقمع شهواتهـا ، و يتحامى النوم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، حتى ضعفت بشريته ، وقويت روحانيته ، وأحس وكأنه يبدو خفيفا إذا ارتقى صاعدا ، ثقيلا إذا هبط نازلا .. !

---

(١) الميزان الـكبرى ج ١ ص ١٨ ولطائف المنن ج ١ ص ٤٧ ـ ٨ وعلى مبارك ج ٦ ص ٤٣ وتكميل النور السافر ص ٦٦٠ وطبقات الشاذلية ص ١٣٩ الخ

راض الشعرانى نفسه على مكاره الطريق وهو يقيم فى جامع الغمرى ، فطاب ذكره وذاع فى الناس اسمه ، وكان شيخه « على الشونى » قد أذن له فى أن يرتب بهـذا المسجد مجلسا للصلاة والسلام على رسول الله ، ولكن أولاد الغمرى ـ فيما يرى على مبارك ـ قد نفسوا عليه المكانة الملحوظة التى أصابها بين الناس ، فآثر أن يغادر مسجدهم ، وهذا تعليل لا نجد فيما صادفنا من آثار الشعرانى ما يبرره .

وقيل إن حاله قد اشتد به ذات يوم ، فصاح باسم « الله » صيحة ارتجت لها جدران المسجد ، وكاد يتصدع منهـا بيت الشيخ أبى الحسن الغمرى + ٩٣٩ ﻫ ، وكان على كثب منه ، فاستفسر هذا عن صاحب الصوت حتى إذا عرفه، همّ بالارتحال إلى بيت آخر، ولكن الشعرانى قد سبقه إلى الرحيل تاركا وراءه كل ما يملك ، وولّى وجهه شطر « بين السورين » حتى حطّ رحاله بمدرسة « أم خوند » ، وأقام تجاهها ستة أيام ، خُيِّل إليه بعدها أن رسول الله قد أذن له فى الإقامة بها ، فدخلها مع أسرته ، ولبثوا بها سبع سنين .

ولعل الأصح أن يقال إن انتقاله إليها كان مردّه إلى غلبة خصومه الذين آذوه بجامع الغمرى ، ونكلوا بأتباعه ومريديه ، حتى لم يبق معه غير الغرباء منهم ، إذ أنبأه شيخ صالح ورع ، أنه رأى فى منامه أن الله يأذن له فى الانتقال إلى هـذه المدرسة ، ولكنه آثر أن يتريث ، فاحتك خصومه بجماعته ،

ووقع بين الفريقين شجار عنيف ، فسارع إلى الارتحال ، اتقاءً لكل شر

وفى أثناء مقامه بهذه المدرسة ، غضب أحد نواب السلطان سليم ، على القاضى محيي الدين عبد القادر الأرزيكى، فاختفى القاضى مدة أشهرَ فيها خصمه النداء فى شوارع مصر بإهدار دمه ، و إغراء قاتله بجائزة ثمينة، وضاق القاضى بسجنه ، فانطلق إلى الشعرانى فى مدرسته ، وشكى إليه أمره ، وتعهد بإقامة مسجد لله إن سلمت حيـاته من شر غريمه ، فزوده الشعرانى ـ فيما يقـال ـ بشظية كانت ملقاة على الأرض ، وأشار عليه بأن يلقى بها الباشا ولا يخشى سوءًا ..! فتردد القاضى لأن جميع من التمس عنـدهم التوسط فى العفو عنه ، من أكابر الدولة وأهل الصدارة فيها ، رفضوا الاتصال بغريمه، وصرحوا بخوفهم من غدره ، و إشفاقهم على حياتهم من شره، ثم استجاب للمشورة ومضى للقاء الباشا ، حتى إذا دنا منه ، ألقى الشظية أمامه ، فخف الباشا للقائه والاحتفاء بمقدمه ، وأعاده إلى منصبه ، وأشهر النداء فى شوارع مصر بالعفو عنه وعدم التعرض له بسوء .. !!

وقيل فى تفسير هـذا الموقف ـ ولعله الأصح ـ إن السلطان سليم قد غضب على هـذا القاضى ، ثم تسامع ـ أثناء مقامه بمصر ـ بنبأ هـذا الولى الصغير « الشعرانى » ، فخفّ لزيارته ، وسأله حاجته ، فالتمس عنده العفو عن هذا القاضى ، فأجابه إلى مطلبه ـ بل يقول على مبـارك ـ و يردد قوله بعض

المستشرقين — إن هذا القاضى قد أساء استغلال وظيفته ، واغتصب عقاراً لم يكن له ، ثم خشى بعد الفتح العثمانى انكشاف أمره ، فوقفه على وجوه البر فى زاوية الشعرانى وذريته معا — وليس فى هذا الاحتمال ما يدعو إلى رفضه — وابتاع القاضى مكانا خربا يقيم فيه المسجد الذى وعد به ، ولكن أحد الأمراء قد اغتصب الأرض معتزما أن يقيم عليها بيتاً له ، فحذره أحد أرباب الأحوال من سوء ما ينوى ، ولكنه ركب رأسه ، وأعلن لخواص أصحابه أن هذا الناصح مجذوب ، وأن الاهتمام بحديثه صغار لا يليق بالأمراء ، فدفع ثمن هذا الاستخفاف غالياً ، إذ مات بعد بضعة أيام ، فابتاع القاضى الأرض وشاد عليها مسجد الشعرانى، الذى لا يزال قائماً حتى يومنا الراهن ، وفيه كانت زاويته التى صدر عنها مجده وفاضت شهرته

وقد حفر الكثير من الآبار لمطهرة هذه الزاوية ، وعلى غير جدوى ما فعل ، وكان يشاع عن شيخه — نور الدين الشونى — أنه يتصل بالنبى إبان يقظته ! فطلب إليه الشعرانى أن يستشيره فى أصلح مكان تحفر فيه هذه البئر ، فأشار عليه بعد قليل بحفرها — بأذن الرسول — فى مكان دانٍ من ردهة بيته ، فكان ماؤها عذباً سلسبيلاً ، حتى أشيع اتصالها بزمزم ! وقيل إن أحد المريدين كان قد سافر إلى مكة ، فسقطت منه فى بئر زمزم طاسة من نحاس ، فأخرجت بعينها من بئر الزاوية . ! وتسامع الناس

بهذا النبأ ، فخفّوا إليها تيمناً بمائها ، وسارع إليها المرضى للاستشفاء .

ولا تزال البئر قائمة بالمسجد إلى يومنا الحاضر ، وإن كانوا قد استغنوا عنها باستخراج الماء باستعمال « مضخة » ، وعلى كثب من البئر غرفة يستحم فيها السيدات بهذا الماء تيمناً ، وأما مدرسة أم خوند فهى الآن دار للتعليم الأولى ، وأما جامع الغمرى فقد هُجر منذ زمان ، ثم تحول فى الحرب التى تضع فى هذه الأيام أوزارها ، إلى مخبأ يتقى فيه أهل الحى شر الغارات الجوية . . ! كان الشعرانى منذ بضعة قرون ينزوى فيه طلباً لعبادة الله وإلتماساً لمرضاته وغفرانه ، فاختبأ فيه الناس فى السنين الأخيرة طلباً للأمان ، واتقاءً لشر الطليان والألمان . ! وأما المسجد فلا يزال على ما وصفه على مبارك فى خططه[1] ، ويقوم ضريح الشعرانى عن يسار القبلة ، وعن يمينها يقوم ضريح شيخه على الشونى ، ولا تزال حضرة السيدات تقام بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع .. !

أما السبب فى إقامة ضريحه ، فذلك أن أمين الشون ، الأمير حسن بك صنجق ، قد أحبه ، حتى كان لا يفارقه ، فعتب عليه الشعرانى ذلك ، لأن فيه استخفافاً بمصالح رعيته ، فمضى الأمير إلى داره ، وأعتق عبيده وحبس أملاكه ، وقفاً على وجوه الخير ، واستبقى من ذلك كله رخام بيت من بيوته ، ومبلغاً من

(١) ج ٥ ص ٣٤

المـال يكفى لاقامة ضريح ومزار للشعرانى ، وأقبل على شيخه فقيراً متجرداً سالـكا على يديه حتى أضحى من أصحابه ـ وأصيب الشـعرانى بالفـالج ، وأحس بأن ساعتـه قد دنت ، فطلب إلى الأمير أن يقيم له الضريح الذى اعتزم إقامته ، ولـما انتصب القبر وارتفعت المنامة ، انعقـد لسانه وجمدت أوصاله، واستوفى الشعرانى أنفاسه، وكان هذا فى الثانى عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للهجرة ، واشترك فى إقامة الصلاة عَلَى جثمانه فى الجامع الأزهر ، الأمراء ومشايخ العرب والقضاة والفقهاء والتجار ومن إليهم ، ثم دون بجوار زاويته فى المشهد السـالف الذكر (فى خط بين الصورين)[1]

ولـكن سيرة الشـعرانى تفقد جانبها المشرق الوضاء ، إن خلت من الحديث عن زاويته

---

(٢) ترجم لنفسه فى لطائف المنن ، ووردت سيرته فى طبقـات المنـاوى الـكبرى ع ٢ ص + ٤٩٥ ـ ٨ وتكميل النـور السـافر ص ٦٥٨ وما بعدهـا وعلى مبارك ع ١٤ ص ١٠٩ ـ ١١٣ وشذرات الذهب ص ٤٩٥ وما بعدها والمناقب الـكبرى ص ١٣٨ ـ ١٦٢ وطبقات الشاذلية ص ١٣٨ ـ ١٤٢ وللمستشرقين « ڤولرز » فى دائرة معارف الدين والأخلاق مادة Ash - Sha` rani و Diettrich فى مجلة الدراسات الشرقية ع ٦٣ ص ٨١ و Dr Perron فى ترجمتـه للميزان الصغرى . الخ وبشـأن مسجده قارن Description de L' Egypte وكذلك Baedeker

الفَصلُ الثانى

زاوية الشعرانى

وصف الحياة فيها

أقامها القاضى الأرزيكى ـ على ما عرفنا من قبل ـ رباطاً للعُبَّاد ، ومدرسة لطلب العلم ، وزاوية للمتهجدين ومسجداً للصلاة وتكية للفقراء ، وحبس عليها ـ قبل إقامتها ـ الأوقاف ، وأجرى عليها الأرزاق ، وعين لها من تحتاج إليه من مؤذنين وقراء وأئمة وخطباء ، وكانت سمعة الشعرانى قد استطارت ، حتى تسامع بها أهل اليسار ، فخصوه بوفرة من عنايتهم ، أوقافاً يحبسونها ، وعطايا وهدايا يقدمونها سرًّا وجهراً ، واجتذبت هذه السمعة الطائرة آلاف المريدين والمعجبين ، استقر منهم فى رحاب الزاوية مائتين ـ بينهم تسعة وعشرون كفيفاً ـ أقام المتزوجون منهم مع زوجاتهم وأولادهم عاطلين عن كل عمل مدر للمال ، طاعمين كاسين ممتعين لا يحتملون من نفقات

عيشهم كثيراً ولا قليلا ، أعد لهم من الخبز فى كل صباح أردبًّا وثلث أردب ، يقوم على تهيئته عشرون فرداً ، واختزن لهم فى كل عام من العسل النحل عشرة قناطير، ومن عسل القصب عشرين قنطاراً، ومن القمح ثلاثمائة أردب ؛ ومن الفول فى فصل الشتاء أربعين أردبًّا ، ومن الكشك سبعة أرادب ، ومن الأرز سبعةً أخرى ، ومن الباسلاء والعدس خمسة وعشرين أردبًّا . . ! فإذا أقبل العيد خصص للكعك خمسة أرادب ، فوق ما يهدى إليه من كعك الريف ، وهو يعادل الثلاثة أرادب ، ثم يبتاع لمجاوريه ـ مع هذا كله من اللوز والجوز والبندق والخروب والتمر والزبيب والتين الجاف ، ما يعادل خمسة قناطير ، ويودع خزائنه من البطيخ نحو ألفين ، تكفى مجاوريه وضيوفه وهداياه إلى المرضى حتى يظهر موسم البطيخ الجديد

وقد نهض ـ مع هذا ـ بتزويج أربعين مجاوراً من مريديه ، قام عنهم بسداد المهر ونفقات الزواج ، وحرص على تزويد زوجاتهم ، باللبان الشامى والحجازى والشمع والخضاب والزينة والخيط والتوتيةوالاسفيداج ونحوه، وسَدَّ ما ظهر من رغباتهن وما استتر، وقام بإيفاد أفواج من مريديه للحج على نفقته ، مزودين بكل ما ينتظر أن يحتاجوا إليه ، ومع هـذا كله لا يغيض فيض الخيرات فى زاويته ، فيكرم من يفد لزيارته من الضيوف ـ وقد كانوا يقدرون

فى اليوم الواحد بالسبعين ضيفاً ، ويقوم بتزويد العلماء والمعوزين ومشايخ البلاد فى مصر وغيرها بالكساء والغذاء[١] .. !

موقفه من عطايا المحسنين على زاويته :

وهكذا بدأ الشعرانى ـ على طريقة أجداده منذ تَخَلَّو عن السلطنة وجاهها ـ معوزا معدما ، لا يملك ثمن كراسة يكتب فيها تعليقاته على ما يقرأ ، ولا يجد صداق زوج يبنى بها[٢] ، فإذا عرض عليه الأمراء وأهل اليسار الذهب والفضة ، أشاح عنهم بوجهه ، وردّ هداياهم فى غير تردد[٣] .. قدم إليه الدفتردار أحمد مبلغاً من المال جهراً ، فأباه الشعرانى ، فبعث به مع أحد مماليكه وأوصاه بتقديمه إلى الشيخ خفيةً عن الأنظار ، فقال الشعرانى لهذا المملوك : كيف أقبله منك وقد رفضته من مولاك .. ! ـ فانطلق المملوك إلى سيده ، يتحدث مشدوها عن زهد هذا الرجل الغريب فى فقراء مصر[٤] وقد استأذنه الأمير جانم

(١) لطائف المنن ج ١ ص ١٨ و ج ٢ ص ١١٦ ـ ١١٨ و ١٢٠ و ١٣٢ و ١٣٦ والمناقب الكبرى ص ٧٢ و ٧٨ و ١٤٠ ولكن طبقات الشاذلية ص ١٤٠ وتكميل النور السافر ص ٦٦٣ وطبقات المناوى الكبرى ص ٤٩٦ تتفق فى تحديد عدد المجاورين بمائة ، ولعل عددهم كان كذلك فى وقت ما

(٢) المناقب الكبرى ص ٤٢ و ١٣٩

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٤٧ والمناقب ص ٨٢ و ٨٥ ـ ٨٦ و ١٠٥

(٤) المناقب ص ١١٥

الحزاوى فى أن يلتمس عند السلطان لزاويته « مسموحا » فأبى الشعرانى إباءً شديداً ، فعرض عليه أن يقدم إليه كل صباح مبلغاً من « الجوالى » ، فأبى معتذرا بأن هذه الضريبة مخصصة لمن يقوم بالتجاريد[١] وقدم إليه المباشرون الذهب والفضة فى جامع الغمرى ، فألقاها فى صحن المسجد على مرأى منهم ، حتى تهافت لالتقاطها المجاورون[٢] ! وقد فسر مسلكه بتساوى الذهب والتراب فى عينه ، معللا خشونته ، بأن قبوله للهدايا اعتراف منه بولايته، وما هكذا يكون الفقراء[٣]

كان هـذا فى صدر حياته ، فلما ازدحمت بالمجاورين زاويته ، وثقلت التبعات على كاهله ، اضطر إلى قبول ما يحبس من أوقاف وما يقدم من عطايا، فمكنه هـذا من أن يتكفل بالإنفاق على مريديه ثلاثين عاما ، دون أن يزاول عملاً يدر عليه مالا

وقد تثير هـذه البيانات عند بعض القراء أسئلة ، لا يجدون لها جواباً مقنعاً ، إلا على حساب سمعته . . . ! قد لا يدرون لمـاذا رفض المـال الذى قدمه إليـه المؤمنون به من أهل اليسار ، ولم يقبله ويتولى توزيعه على المعوزين ممن يضنّ عليهم هؤلاء بالصدقات ؟ وإذا افترضنا أنه لم يقبل

---

(١) لطائف المنن ج ٢ ص ١١٧

(٢) لطائف المنن ج ١ ص ٤٧

(٣) المناقب ص ٨٢ و ١١٨ ولطائف المنن ج ١ ص ٥ — ٦ و ٦١

العطايا ونحوها إلا بعد ازدحام زاويته بالمجاورين ، وشعوره بتبعة الإنفاق عليهم ، فلماذا قبل أوقافا تحبس عليه وعلى ذريته من بعده، مامد الله فى عمرها، مع أن بعض أصحاب هذه الأوقاف، قد أباحوا له تعديل موادها على النحو الذى يريد[1] ؟ ورغم أنه يلزم شيوخ الطريق عند توزيع العطايا على مريديهم، ألا يبقوا منها شيئا لأنفسهم ومن يعولون ، ليرتفعوا بهذا عن مجاوريهم فى مراتب الزهد فى الدنيا والإعراض عن مباهجها ..! وحسبنا أن نقول رداً على هذا ، إن الشعرانى ـ بالغا ما بلغت ولايته ـ إنسان ، وحسبه أن يكون كذلك ، لتبدو تصرفاته مسايرة للطبيعة البشرية ، فى نزعاتها وميولها الفطرية والمكتسبة على السواء

على أن فى آثار الشعرانى ما يبدو دحضا للسؤال الأول، فهو لا يعترف بأن المجاورين فى زاويته يعيشون على ما يجود به أهل اليسار من عطايا وأوقاف . . . . ! ويؤكد فى صراحة سافرة أنه إنما يستمد هذا الفيض من الخيرات مما يفتح الله[2] ، ولا يدخل فى هذا الفتح الألهى ما يفيض به المحسنون من أوقاف وأرزاق ....! بل يراها مدعاة لإتلاف المجاورين ، و إفساد يُمن الله وبركته ، ومجلبة للاستدانة والجهر بالشكوى ، فوق أنها تعرض أهل

---

(٤) وقفية القاضى محي الدين عبد القادر وقد نشرناها فى بحث لنا عن التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى (كان رسالة للماجستير وفى عزمنا نشرها بعد) .

(٥) قارن الطبقات الوسطى ص ٢٠٥ ولطائف المنن ج ١ ص ١٨ و ج ٢ ص ١٢٩ و ١٢١ والطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٧

الطريق للرياء والنفاق، والذلة أمام هؤلاء المحسنين ! وحسب أهل الطريق إخلاصهم فى عبادة الله وانقطاعهم لذكره ، فأن هذا كفيل بأن يهىء لهم الرزق من حيث لا يحتسبون[1] ، وقد يسر الله لصفوة الفقراء من أهل التصوف، سبيل الاتصال بحضرته ، والاستعانة به على حاجاتهم رأسا من غير وساطة ، وقد أشرنا إلى ما يملكه الواصلون من أهل السلوك ، من وجوه القدرة فى مجال الجاه والعلم وغيره، مما يتنافى مع أبسط قوانين الطبيعة ، فليس غريباً بعد هذا أن يكون للقدرة الإلهية « صيرفيا » يسد مطالب أهل الكشف من الفقراء ، ويمكّنهم من الأنفاق من الغيب بفضل الله[2] . . .!

هذا منطق الشعرانى فى الكثير من مؤلفاته ، ولعلنا لا نتجنى إن رددنا هذا الفتح إلى ما يقدم إليه من عطايا المحسنين فى خفاء عن الناس، وهذه ظاهرة تؤيدها تقاليد الأسلام ، وتبررها ثقة المحسنين فى شيوخ الطريق ، وبهذا يستقيم تصوره مع منطق العقل .

موازنة بين الحياة فى الزاوية وخارجها

وإن الإنسان ليعجب ـ حين يطّلع على وصف الحياة فى الزاوية ـ من هؤلاء الزهدة الذين كانوا ينعمون بما لا يتهيأ لمعاصريهم من أهل الدنيا ... !

(١) البحر المورود ص ٣٤٦ والعهود المحمدية ص ٣٠٦ وقارن لطائف المنن ج ٢ ص ١١٧ و ١٢١ فى زاوية المنزلاوى .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٥

والشعرانى الذى يكثر من وصف المجتمع المصرى فى عصره ، يعرض للضنك الذى كان يعانيه معاصروه ، فيمكننا بهذا من عقد موازنه بين الفاقة عند عامة الناس ، والترف عند الذين وقفوا حياتهم على الحرمان .

التمس الشعرانى العذر للتاجر الذى يهمل فى رعاية الفقراء من أهل التصوف ، بالكساد الذى يصيب تجارته ، حتى ليقضى أياماً ثلاثة عاطلا عن كل عمل ، مع حاجته إلى قوت نفسه ومن يعول ، وأجر بيته وحانوته ، وعوائد الظلمة من الخفراء ورسل المحتسب « ومشد التراب ومشد الفلوس والذهب فى الأسواق » .

ويعقب بالتماس هذا العذر للفلاح كذلك ، لأنه يقضى حياته فى ضنك وشقاء ، ويكلفه قصاد الكشاف والعمال والعرب فوق ما يطيق ، فيقدم إليهم كل ما يملك من لبن وسمن ودجاج وغنم ، حتى يبيع غزل امرأته من أجلهم ، ثم « يحملونه عاطل البلد » فوق الخراج آخر كل عام ، « وربما رسموا على رزقه فى الجرن ، فيطلب منه طحيناً فلا يمكنوه ـ يمكّنونه ـ من ذلك ، فياليتهم جعلوه كغلمان الأمين الذين لهم عادة[1] ... » .

فأين هذا بالله من عسل النحل والبطيخ واللوز والجوز ونحوه مما عرفنا ، فوق راحة البال واطمئنان النفس والخلو من كل تبعة . . ؟ أليس هذا عاملا له خطره فى تهافت المجاورين على العيش فى زاويته . . ؟

---

(١) العهود المحمدية ص ١٢٥

السر فى التهافت على زاويته :

وما أظن فى هـذا التفسير شيئا من التجنى ، فقد اعترف الشعرانى فى طبقاته الـكبرى والوسطى معا ، بأن زاوية المتبولى كانت تضم مائة مجـاور ، فإذا اشتد الغلاء واختفت آيات الرخاء، ارتفع العدد إلى نصف ألف مجاور[1] ..!

وقد آلت زاوية الشعرانى بعده إلى ابنه عبد الرحمن ، وكان ممسكا مقترا، فنازعه عليها ابن عمه عبـد اللطيف ، وكان جوادا كريما ، فانتصر له الفقراء وخذلوا خصمه ، ولـكن المنية عاجلته ، فانفرد بالزاوية ابن صاحبها ، ولـكن تقتيره قد أدى إلى تدهور أمرها ، حتى كان مجلس يوم الجمعة لا يضم أكثر من اثنين أو ثلاثة، يعقدونه فى مطلع الليـل ، ثم لا يلبث النعاس أن يغلبهم فيما يقول المناوى والمحبى والغزى ومن إليهم من كتاب هذا العصر ، فلما تولى أمرها ابنه السيد يحيي + ١٠٦٥ جرى على نهج جـده فى البذل والإيثار ، وهيأ لمجاوريه أسباب النعيم ، فطعموا صنوف الفواكه منـذ بدء ظهورها ، ونعموا بالمشمش والخوخ والـكمثرى والتفاح والنبق والرمان والعنب والبطيخ والقثاء والخيار وغـيره ، فإذا ظهر موسم الملوخية سارع إلى طهيها لهم مرودة بالأوز مصحوبة بالـكنافة ، وأرسل منها مع اللبن والبيض وغيره إلى بيوت

---

(١) الطبقات الوسطى + ٢١٣ والطبقات الـكبرى ج ٢ ص ٧٥

مريديه ، و بعث لأهل المجاورين فى ليالى رمضان بالطعام الشهى اللذيذ ، فإذا أقبل العيد حرص على أن يكسو خدام الزاوية كساءً فاخرا ... فسرعان ما استردت الزاوية مجدها الذى كان لها أيام عاهلها الكبير[1] .. !

وقد تثير هذه البيانات شيئا من الدهشة ، لأن التصوف لا يستقيم بغير الزهد والحرمان ، فحسب الشيخ من عطايا المحسنين ما يكفى مجاوريه غذاءً وكساءً ، وتوزيع سائرها على المعوزين خارج زاويته أحرى بالاتباع ، ولكن الشعرانى قد صرح ـ فيما عرفنا ـ بأنه كان لا يكتفى بهبات المحسنين من ألوان الترف ، فيبتاع لمجاوريه اللوز والجوز والزبيب والتين ونحوه ، وهذا ما لا يستقيم مع أبسط قواعد الحرمان ، ولكن ألا يجوز أن نقول ـ إنصافا للشعرانى وغيره من شيوخ الطريق ـ إنهم تحرَّوا توفير أسباب الترف فى زواياهم ، إغراءً للمريدين بالإقامة فى رحابها ، حتى إذا عاشوا فى جوها ، راضوا نفوسهم على احتمال مكاره العيش ومتاعب السلوك ، ومجاهدة النفس والترقى فى المقامات حتى يبلغوا مراتب الكُمَّل من أهل الكشف .. ؟ إن صح هذا كان الشعرانى أبعد من ناقديه نظرا وأحدّ ذكاء ، وأعرف ببواطن النفوس وأقدر على مداواة أمراضها وفى أى شرعة من شرائع العقل يحرم على شيخ ينهض بمداواة

---

(١) طبقات المناوى الكبرى ٤٩٦ و + ٤٩٧ وشذرات الذهب ج ٨ نقلا عن المناوى ـ وعلى مبارك ج ١٤ ص ١١٣ والمحبى فى خلاصة الأثر ج ٢ ص ٣٦٤ وتكميل النور السافر ص ٦٦٥

النفوس ، أن يغرى المرضى من أصحابها بمتابعته ، حتى إذا اطمأنوا إليه ، وآمنوا به ، أخذ يضطلع بعلاج أمراضهم ، ويرقى بهم إلى مراتب الكمال ..؟ إن هذا شبيه بمسلك الدين فى تحريم بعض ما هفت إليه نفوس العرب ، ومن هنا جاء الأمر بتحريم الخمر على مراحل ...

على أن الكثير مما فاض عن حاجة المجاورين فى زاويته ، قد أصاب منه المعدمون والمعوزون من أهل مصر ومكة وغيرها ، فكانت زاويته مركزا يفيض بالخيرات والنعم

الحياة العلمية والروحية فى زاويته

فإذا تجاوزنا الحديث عن مظاهر الحياة المادية فى زاويته ، وعرضنا للحياة الروحية والعلمية عند المقيمين فيها ، كشفنا عن وجه آخر من وجوهها الوضيئة المشرقة ، فقد كان الشعرانى أوسع أهل عصره علما وأرسخهم فى التصوف قدما، فكان طبيعيا ما تحدث عنه مؤرخوه من شهرة زاويته، بمزاولة العلم المعروف فى عصره ، ومباشرة العبادات على اختلاف صورها ، وقد فاخر الشعرانى بأن الذين يتقرّءون القرآن والحديث فى زاويته ، يواصلون القراءة ليلا ونهارا ، فلا يفرغ قارئ فى الحديث حتى يشرع غيره فى القراءه فى التصوف ، ولا ينتهى هذا حتى يليه قارئ فى كتب الفقه ، وهكذا سحابة النهار وطيلة الليل

من غير انقطاع .. ! وصرح مؤرخوه من أمثـال المناوى والشبلى وصاحب طبقات الشاذلية ، بأن النـاس كانوا يسمعون لزاويته دويا كدوىّ النحل ليلا ونهارا ، ما بين ذاكر وقارئ ومجتهد ومطالع فى الـكتب ونحوه ، وهكذا حفلت زاويته بالقراء فى الفقه والحديث والتفسير والنحو وما إليها من أدوات العلوم الشرعيـة ، واكتظت بالقراء فى التصوف والمقيمين على ذكر الله أو قراءة الحزب ونحوه ، مما حمل أهل الفضل فى عصره على أن يصرحوا بأنهم لم يروا فى مشارق الأرض ومغاربها ، خيرا من زاويته علمـا وفضلا وتصوفا وأدبا[1]

ولـكن كيف تحول الشعرانى صوفيا بعد أن كان فقيها .. ؟ إن هـــذا التحول خليق بكلمة مستقـلة ، لأنه حادث طريف فى تاريخ التصوف الإسلامى كله

(١) قارن لطائف المنن ج ١ ص ١٨ و ج ٢ ص ١١٣ والمنـاقب ص ١٠٤ و ١٠٦ و ١٥٣ و ١٥٦ ـ ٧ وطبقات المناوى الـكبرى ٤٩٦ وتكميل النور السافر ص ٦٦٢ وطبقات الشاذلية ص ١٣٩

الفصل الثالث

كيف تصوف الشعرانى ؟

قلنا إن الشعرانى قد ألمّ بعلوم الظاهر والباطن ، وتبحر فيها واستوعب أحكامها وشروطها ، وأنه راض نفسه وجاهد شهواته ، حتى زهد فى أطايب العيش ، وانصرف حتى عما أباحه الشرع من لذاذات ، ولكن كيف انتقل من مجال الفقه إلى مزاولة التصوف شيخا يقوم بتربية المريدين ، وتلقينهم الذكر وإدخالهم الخلوة وإلباسهم الخرقة والأذن لهم بإرخاء العذبة .. ؟

اختيار الخواص شيخا يسلك على يديه

أشار عليه أحمد البهلول ــ أحد أولياء عصره ــ بأن يقنع بما جمع من علم ، وأن يلتمس السلوك على يد شيخ يرشده ويوصله إلى حضرة الله فاستشار أصحابه وشيوخه فيمن يأخذ عنه طريق الصوفية ، فأرشده أكثرهم إلى صاحب التصريف فى مصر وقراها « على الخواص » ، إذ كان يشاع عنه أنه يجتمع برسول الله إبان يقظته ، ويأخذ عنه علم ما يجهل .. ! وقيل إنه ينقل عن

اللوح المحفوظ رأسا من غير وساطة .. ! ولم يكن هذا ـ فى عرف الناس ـ غريبا على هذا الأمى الذى ورث مقام شيخه « إبراهيم المتبولى » ، وأفاض بالحديث فيما يجهل كبار العلماء فى عصره .. ! وقد كان ، فسلك الشعرانى أوسع أهل عصره علما وفقها ، على يد أُمِّى لا يميز الألف من الباء[1] .. !

مطالب الشروع فى السلوك ومراحله

ولما اجتمع به الشعرانى أول مرة ، دار بينهما حديث عرف منه شيخه ، أنه يريد السلوك إلى طريق الله على يديه ، وأنه يحترف طلب العلم ، وأن لديه الكثير من الكتب ، وأنه ينتسب إلى السلطان أحمد بتلمسان المغرب ، وأنه ينحدر إلى ابن الحنفية بن الإمام على كرم الله وجهه . فقال له شيخه إن السلطنة والشرف والفقر (التصوف) لا تجتمع فى إنسان فأعلن الشعرانى استعداده للتخلى عن مجد السلطنة وجلال شرفها فى سبيل الفقر

يقول الشعرانى : إن الخواص قد أمره فى أول اجتماع به ، أن يبيع كتبه وينفق ثمنها إحسانا على المعوزين ، فاستجاب لمطلبه ، وكان من بينها ما يقوَّم بثمن غير زهيد ، وكان قد دوَّن على هوامشها الكثير من تعليقاته وحواشيه،

---

(١) قارن قواعد الصوفية ١٧٨ ـ ٩ ودرر الغواص ٦٨ ـ ٩ والجواهر والدرر ص ١ والمناقب الكبرى ٥٣ ولطائف المنن ج ١ ص ٢٦ و ٤٩ والبحر المورود ٣٦٧

فلبثت نفسه تهفو إليها ، ووهمه يجسّم له أمرها ، حتى خيل إليه أن معين علمه قد غاض ، فطلب إليه شيخه أن يستعيض عنها بالتجرد لذكر الله حتى ينساها ، تمشيا مع القول المعروف: ملتفتٌ لا يصل . فاستجاب لنصحه حتى هيأ الله له سبيل الخلاص منها .. !

يقول صاحب المناقب إن الشعرانى قد أبقى من كتبه شرح الجلال المحلى على المنهاج ، لكثرة تعليقاته عليه ، ولكنه راض نفسه بعدُ على احتمال بيعه ، أملاً فى الوصول إلى حضرة الله ، ثم مضى إلى شيخه وأنبأه بذلك ، فطلب إليه أن ينصرف عن طلب العلم وحضور مجالسه عاماً كاملا ، فامتثل أمره ، ثم اتصل به بعد هذا العام ، فقال له شيخه بقيت فارغا والفارغ يملأ ولا يتغير ما فيه . ولعله أراد بهذا أن يقول إن النفس تكون أقدر فى حال الجهل على تلقٍّ الألهام الألهى منها فى حال العلم ، وأن العلم اللدنى لا يغاير علم الظاهر فى حقيقته .

ثم طلب إليه شيخه أن يعتزل الناس ويتحامى مجالسهم ، وينقطع لذكر الله سراً وجهراً ، وأن يحرص على المبادرة بطرد كل خاطر يهفو إلى ذهنه ، حتى لا يكون له من شاغل دون الله ، وأقام على هذا بضعة أشهر ثم أمره بالزهد فى لذاذات الطعام ، فانصاع لأمره حتى أحس وكأنه يصعد بالهمة فى الهواء ، وأن العلوم الوهبية تزاحم العلوم النقلية فى نفسه ، فأشار عليه

بالتوجه إلى الله تعالى ، فى التماس الأدلة الشرعية على ما يرد عليه من علوم الباطن ، فلما أطلعه الله عليها ، ومحى العلوم النقلية من لوح قلبه ، لا تدارجها فى تلك الأدلة ، أقبلت عليه العلوم الوهبية تترى ، ونزل به الهاتف يوم الإثنين فى السابع عشر من شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة للهجرة ، فيما يقول فى « آداب العبودية » ، وكان أثناء هذا يقف بالفسطاط تجاه الروضة بالقاهرة ، حيث تزاحمت العلوم اللدنية على أبواب قلبه ، وقد وسع كل باب منها ما بين السماء والأرض ، فأخذ يفيض فى تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى ، ويستنبط منها أحكام الدين وقواعد النحو وغيرها ، حتى أغناه هذا عن استقاء العلم عن آثار المؤلفين ـ قدامى كانوا أو محدثين ! فسجل من هذه العلوم الوهبية ما استغرق نحو مائة كراسة ، وأطلع عليها شيخه ، فأدرك هذا أنها علم مخلوط بفكر وكسب ، وحاشا لعلوم الوهب أن تكون كذلك ، وأمره بمحوها والعمل على تصفية القلب من شوائب النظر العقلى ، لأن بينه وبين العلم اللدنى الخالص ألف مقام .. !

وكان الشعرانى كلما دوّن ما خاله من العلم اللدنى ، الذى يرد على قلبه من الفتح الإلهى ، عرضه على شيخه، فيأمره شيخه بأن يعرض عنه ويلتمس ما فوقه ، حتى أذعن للاعتراف بأنه « وصل » ، ولله الحمد أولا وآخراً

بدء الفتح الإلهى :

وحين أجلسه « الخواص » بين يديه ، وأخذ عليه العهد ولقنه الذكر وأعطاه الورد ، أنبأه بأن الفتح الإلهى سيكون بروضة المقياس ، وطلب إليه أن يمضى إليها فى صباح الغد ، ومعه الدواة والقرطاس ، وأن ينتظر فتح الله . وأحس الشعرانى وهو فى هذا الانتظار بأن قلبه انفتح فيه باب يتسلل منه علم الله ، فسجل منه سبع كراسات ، بدا لشيخه أنها لا تخلو من علم الظاهر على ما أشرنا ، فطلب إليه محوها وانتظار الفتح مرة ثانية فثالثة ، وتكرر هذا حتى فتح الله عليه بعلم آداب العبودية ، فلما رآه شيخه قال : تمّ أمرك وعلا قدرك وروى قلبك، فأبقِ على ما تكتب . فسمى الشعرانى هذا الكتاب « الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية » والكتاب لا يزال موجوداً ، وقد تعددت طبعاته

وفى تصوير الشعرانى لمراحل وصوله طرافة ، تستحق أن نقف عندها قليلا ، فهو يصرح بأن بحر العلم عند شيخه مبسوط الرحاب ، عميق القاع ، وهو لا يقوم على غير الكشف الصحيح والتعريف الإلهى ، ولا يتصل بالفكر والنظر فى كثير ولا قليل ، وقد غطس الشعرانى فى هذا البحر ـ فيما يقول ـ خمس مرات ، فلما همّ بالسادسة استحال البحر حجراً ، وقد وجد فى كل مرة غاص فيها صيداً من خزائن العلم اللّدنى ، يقول : « ففى المرة الأولى وجدت

خزينة على بابها قفل ، ففتحتها بقول : لا إله إلا الله ، فوجدت فيها جملة العلوم التى برزت من اللوح المحفوظ إلى جميع هذا العالم على اختلاف طبقاته ، من الصديقية الكبرى إلى آخر درجات الولاية ، مشتملة على علوم لا تحصى إلا بتعريف من الله عز وجل ، مكتوب على كل علم اسمه ، فأخرجت جميع تلك العلوم وجعلتها عندى فى ذخيرتى ، فلما غطست فى المرة الثانية وجدت خزانة أخرى ، على بابها قفلان ، ففتحتها باسم الله ، فوجدت فى الخزانة جملة من آيات القرآن العظيم ، من أول سورة الحق إلى آخر القرآن ، ووجدت تفسير كل آية من تلك الآيات مكتوباً عنها ، فأخرجتها ووضعتها فى الذخيرة بجانب علوم الخزينة الأولى »

وهكذا يمضى الشعرانى فى شرح ما صادفه من العلم اللدنى فى كل مرة ، حتى إذا انتهى إلى الخامسة ، أغلق باب ذخيرته على ما أودعه فيها ، وأحكم إغلاقه بعشرة أقفال ، لا يفشى سره إلى أحد من الناس ، خشية الإنكار وتوقع الاستخفاف . ! حتى عاد إليه وارد الحق على لسان هاتف مرات ، وأنبأه بأن الجنة محرمة على البخلاء ، فانشرح صدره ، وقوى عزمه على إفشاء هذه العلوم وتدوينها ، توطئة لإذاعتها فى الناس ، فلما همّ بكتابتها بترتيب عثوره عليها ، وجد على باب كل خزانة إعلاناً يشير إلى اسمها ، إلا الخزانة الأخيرة ، فقد وجد على بابها خاتمة فترجمها كما رآها

وواضح من هذا ، أن الشعرانى كان يتهيب خصومه من العلماء والفقهاء، فيتردد فى إعلان ما اهتدى إليه من علم الباطن ، و يصرح بأنه حين غاص فى بحر العلوم السالفة ، تحرى مواضعها القريبة من الساحل ، وحرص على تجنب التعمق فى غوصه ، وأشار إلى كتاب وضعه باسم « تنبيه الأغبياء على قطرة من علوم الأولياء » ضمنه الكثير مما يستعصى فهمه على أكثر الناس ، فلما تحقق من حيرتهم فى فهمه ، عمد إلى محوه[1]

تفهم الشعرانى فى ضوء المنطق السيكولوجى

وربما بدا فى أقوال الشعرانى ، إغراق يخرجها عن حد المعقول ، ولكن من الإنصاف لهذا الرجل أن نذكر ـ حين نتفهم ما يرويه من أحداث وقعت له ـ روح العصر الذى عاش فيه ، والعقلية التى كان ـ الشعرانى ـ يتفهم بها ما يعرض له من ظواهر ، والإيمان العميق الذى كان يستوعب نفسه و يستغرق تفكيره ، عندئذ يسهل علينا أن نبرئه من تهمة الكذب ، حتى فيما لا يسيغه العقل مما يرويه واقعاً ، فإن من اليسير على مثل هذا الرجل، أن يتصور مخلصاً ما لا وجود له ، وأن يدرك صادقاً ما يختلقه بوهمه ، وتخدعه تصوراته وأوهامه فيرويها صادقاً فى إيمانه بها . وما من شك فى أن إغفال

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٥٠ والمناقب الكبرى ٥٤ ـ ٥٨

النواحى السيكولوجية فى حياة هـذا الرجل ، والاستخفاف بتتبع تطوراته النفسية ، فى ضوء الجو المعنوى الذى يعيش فيه ، والانقياد لمنطق العقل الجاف وحده فى تفهم شخصيته ، يفضى إلى العجز التام عن فهم حقيقته ، وسنعود إلى بيان هذا فى الـكلمة الأخيرة ، التى ختمنا بها هذا البحث .

وإذا كان الشعرانى قد لازم شيخه « الخواص » هذه السنين الطوال ، واستقى العلم من معينه الفياض ، فقد أبى أن يأخذ مكانه بعد مماته ، لأنه لم يقمه فى حياته شيخاً ، فلما عرض عليه أصحاب هذا الاقتراح أن يقيموه مكانه ، طلب إليهم أن يمهلوه ليلة ، عاد بعدها إلى رفض مطلبهم ، استجابة لمنام رآه فى ليلته(١)

سلوكه على يد سائر شيوخه

وقد أشرنا من قبل إلى أن الشعرانى ، قد سلك الطريق على كثرة من شيوخه ، ومن هؤلاء الشيخ « على المرصفى » ، الذى اعتبره الناس « جنيد » عصره ، وأشاعوا عنه أنه لم ينهض بتربية المريدين ، إلا بعد أن أذن له الله بذلك على لسان رسوله ! وقد كان فى بداية أمره أمياً ـ فيما يقول الشعرانى نفسه ـ وقد حاول أن يلقن الشعرانى الذكر ثلاث مرات ، طلب إليه الشعرانى

(١) طبقات المنـاوى الـكبرى + ٤٩٦ وقارن لطائف المنن ع ١ ص ٢٠٥ وتكميل النور السافر ٦٦١

فى أولاها، أن يلقنه الذكر بحال قوية ، فقال باسم الله ياولدى، ثم أطرق رأسه ساعة ، وطلب إليه أن يقول : لا إله إلا الله ، فما أتمها حتى غاب الشعرانى عن وعيه ، فلما أفاق عند غروب الشمس ألفى نفسه وحيداً ، فأدرك أنه أساء الأدب فى طلبه ، ولهذا كفّ عن الاجتماع به خمسة عشر عاماً . . !

ولما همّ الشيخ بتلقينه الذكر مرة أخرى ، غاب الشعرانى عن وعيه .

ثم تمت عملية التلقين ثالث مرة ، ولزم شيخه بعد هـذا حتى مات عام نيف وثلاثين وتسعمائة للهجرة ، ودفن بزاويته بقنطرة الأمير حسين[1]

وقد تلقن الشعرانى الذكر ، وأخذ العهـد ولبس الخرقة على يد شيخه « محمد الشناوى » + ٩٣٢ ، وأجيز منه بتربية المريدين فى حضرة جمع من الناس ، فى ليـلة مات إبانها ، وتسامع الناس بهـذا النبأ ، فأقبلوا عليه ، يلتمسون منه أن يلقنهم الذكر ويأخذ فى تربيتهم ، فاستشار فى ذلك شيخه « عليا الخواص » ، فأبى عليه شيخه ذلك[2] .!

وقد ألبسه شيخ الاسلام « زكريا الأنصارى » الخرقة ، وهى أثر من قميص أو جبة أو نحوها ، متى اتشح بها المريد فاضت عليه ظاهراً و باطناً ..! بل اتصل الشعرانى بالصادقين من شيوخ عصره ، وأخذ عنهم كافة الطرق الصوفية المعروفة فى أيامه : من الرفاعية والقادرية والأحمدية والبرهانية والشاذلية

---

(١) المناقب ٥٩ ورحلة النابلسى ١٠٩ وتكميل النور السافر ٦٦١

(٢) الطبقات الوسطى ٢٠٤ و + ٢٠٥ والمناقب ٦٢ ـ ٣

والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والكشيرية والمدينية والفردوسية والخلوتية والأوسية والهمدانية والطيفورية والشطارية والخضرية والأدهمية والعزيزية والسعودية ، والمصافحة والطيلسان والرداء والمئزر ، وكل طريقة منها تتصل بالرسول وتنتهى إلى الله عن طريق جبريل فيما يقول القوم[١]

على هذا النحو تصوّف الشعرانى ، وكان تصوفه بدء عهد جديد ، تطلع فيه إلى انتزاع السيادة الروحية فى العلم والطريق ، فأثار ضيق نفر من الفقهاء ، وظفر بعطف الأمراء وأهل اليسار ، واضطلع بتربية الألوف من المريدين والمعجبين ، وكان تصوفه بهذا صفحة جديدة ، فى تاريخ الحياة الروحية فى مصر .

(١) المناقب ٦٦ ــ ٦٧

الباب الثانى

علاقة الشعرانى بمعاصريه

عرضنا فى الباب السالف شيئاً ، عن سيرة الشعرانى عالماً وصوفيًّا ، ونريد أن نتتبعه فى هـذا الباب مع معاصريه ، لأن هذا كفيل بأن يضىء الجوانب المظلمة فى عصره ، ويكشف المناطق المجهولة فى حياته ، وبهذا تتجلى نواحيه المشرقة الوضاءة، ويظهر على صفحتها ما يُظن أنه كان يشينها من مآخذ

فلنحاول الاتصال بعلاقاته مع علماء الدين خصوماً وأنصاراً، وشيوخ الطريق صادقين وأدعياء ، والمريدين السالكين فى حب الله أو فى طلب المنفعة ، وحكام البلاد ظلمة كانوا أو عدولاً

الفصل الأول

الشعرانى مع العلماء والفقهاء

ولاؤه للعلم الظاهر

أشرنا إلى أن الشعرانى لم يذعن للعلم اللدنى حين هبط إلى قلبه ، حتى جاءته الأدلة الشرعية مؤيدة لصحته ، ولا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفاته من توكيد هذا الرأى ، كلما دعت إليه مناسبة ، بل كثيرا ما يختلق المناسبات ، للتدليل على أن علم الباطن لا يخالف علم الظاهر ، وأن أهل الحقيقة على اتفاق مع أهل الشريعة ، وأن كل صوفى فقيه ، وإن لم يكن العكس صحيحا فالتصوف علم ينقدح فى قلوب الأولياء ، حين تستنير بالتزام العمل بالكتاب والسنة ، بل اعتبر الفقه مدخل التصوف ، وقرر بأنهما وجهان مختلفان لعلم واحد[1] ، بل لقد كان الشعرانى فى حملاته على أدعياء الطريق ، يردّ

(١) قارن الجواهر والدرر ١٧٢ – ٣ وقواعد الصوفية ١٧٧ و ٢٣٤ ودرر الغواص ٥٦ والبحر المورود ٣٤٧ وإرشاد الطالبين ٦٧ ولطائف المنن ع ١ ص ٢٤٢ واليواقيت ع ١ ص ٢ – ٣ و ٢٣ و ع ٢ ص ١١٥ الخ ومقدمة الميزان ص ٣ – ٤ وانظر ما يقوله عنه فى هذا الصدد « نيكلسون » Nickolson فى « تاريخ العرب الأدبى » ص ٤٦٥

خصومته لهم ، إلى اختلاف طرقهم وظاهر سلوكهم ، مع كتاب الله وسنة رسوله، وجهلهم بالدين وأحكامه ، مع أن الفقه مدخل التصوف ، ولا يكون التصوف بغير تفقه فى الدين وتبحر فى علومه . وقد حاول التوفيق بينهما حتى وقف على تحقيق هـذه الغاية بعض مؤلفاته ـ كاليواقيت مثلا ـ وأوجب على من تتلمذ على الأموات من الأوليـاء ، ألا يذعن لهواتفهم حتى يقرها رجال الشرع ، مخافة أن يكون الناطق بها شيطانا لا وليا ، وحملته هذه النزعة ، على الدفاع عن الـكُمّل من أهل التصوف ، ممن اتُّهموا بالمروق من الدين ، والتحرر من تعاليمه ، بل جدّ فى تأويل ما صدر فى حال « غيبتهم » ، ووظّف قلمه للدفاع عنهم ، وحسبنا فى تقرير هذه النزعة ، أن نشير إلى موقفه من شيخه «ابن عربى» وسنعرض له بعد قليل

وقد مثَّل الشعرانى معسكر الصوفية الداعين للعلم ، وهاجم معسكر الداعين للجهل من أرباب الطريق على ما سنعرف .

وزاد على هذا إعلان ولائه للعلماء والفقهاء ، حتى ولو أساءوا الظن به ، وعملوا على التشهير بسمعته ، واتهموه بمـا ليس فيه ، حرصا منهم على ظاهر الشرع ! بل وضع آدابا أوجب على من يطلب العـلم على أهله من الفقهاء اتباعها ، فـكفل بهذا توفير الاحترام والتوقير لهم ، وإن كان هذا كله ، لا يتنافى

مع إيثاره لعلم الباطن على علم الظاهر ، حتى أداه هذا الإيثار فى بعض الأحيان ، إلى الحط من شأن العلوم الدينية التى تجىء اكتسابا ، فكان هذا مدعاة لضيق العلماء به ، ونهوضهم للتشهير بسمعته ...

السر فى خصومة الفقهاء له

ولكن الشعرانى كلما عرض لذكر النزاع الذى ثار بينه و بين الفقهاء ، رده إلى حسدهم له وغيرتهم منه ، ولهذا ما يبرره ، فإن الصدارة بين الناس كانت موزعة فى هذا العصر ، بين الفقهاء وشيوخ الطريق ، وكان الشعرانى ملحوظ المكانة مموموق النفوذ — على ما عرفنا — فليس غريبا أن يكون مثار لحسد العلماء وغيرتهم ، ومن أجل هذا تردد — فى هذا العصر — صدى ذلك النزاع الذى وقع بين الفريقين ، منذ القرن الثالث للهجرة ، وتجلى فى موقف الخوارج والأمامية وأهل السنة من الحشوية وأمثالهم من تلامذة ابن حنبل ، فى إنكار التصوف المارق(١)

بل إن المتتبع لمناوأة الفقهاء لأرباب الطريق فى عصر الشعرانى ، يلاحظ أن شدة المناوأة تكاد تتمشى طرديا مع علم الصوفية ، عكسيا مع جهلهم .. ! فإن خصومتهم للشعرانى — وتلميذه المناوى ، وهما من خيرة من عرف عصرهما

(١) دائرة المعارف الإسلامية فى تعليق معالى أستاذنا مصطفى باشا عبد الرازق على مادة تصوف للأستاذ ما سينيون — النسخة العربية .

من أهل العلم والتصوف معا ، تربى كثيرا على خصومتهم اللينة ، لأمثال محمد كريم الدين الخلوتى ، ممن كانوا يجهرون باحتقار العلوم الشرعية ، ويستخفون بالاشتغال بدراستها ، ولعل مردّ هذه الظاهرة ، إلى اشتراك المستنيرين من الصوفية مع الفقهاء فى العلم بالدين ، وامتيازهم عنهم بالتصوف ، الحبيب إلى نفوس الناس جميعا ، وقد أشار نيكلسون إلى أن الشعرانى كان ـ لسعة علمه بالدين ـ يحارب الفقهاء بسلاحهم ، ورأى « ڤولرز » أنه بدا فى « البحر المورود » جريئا فى مهاجمة العلماء ، والتنديد بطمعهم وزهوهم ، والتشهير بجشعهم وتهافتهم على الوظائف[1] وهذا الكتاب ـ فى الواقع ـ حافل بالشواهد التى تؤيد هذه الملاحظة .

ثورة الفقهاء عليه :

وقد بدا الشعرانى مارقا من الدين فى رأى طائفة من الفقهاء .. ! فنهض بعضهم لمناوأته ، وحاولوا التنكيل به ، وأثاروا بشأنه فتنة فى الجامع الأزهر بمصر ، وأشعلوا نارها فى الحجاز ، فزيّفوا مقدمة كتابه « كشف الغمة » ، واستعاروا نسخة مما نسخه مريدوه من كتاب « البحر المورود » ـ الذى هاجمهم فيه ـ ودسوا فيها تعاليم تخالف ظاهر الشريعة ، وضمنوها وجوها من

(١) Vollers فى دائرة معارف الدين والأخلاق لناشرها Dr. Hastings .

العبث ، لا يتفق مع صلاحه ووقاره ، وأرسلوها إلى طائفة من خصومه ، فأذاعوها فى مصر ومكة ، وحرصوا على التشهير بها بين رجال الأزهر ، من غير أن يراجعوه فى أمرها ، ولبث التزييف قائما ثلاث سنوات ، حتى اشتعلت فى الأزهر فتنة، تزعمها الشيخ «حسين العبادى» وأذكى نارها، ولكن الشعرانى كان له حزب من العلماء ينتصر له، ويدفع عنه شر خصومه وحساده، وقد تزعم حركة الدفاع عنه «ناصر الدين اللقانى» ، و«شهاب الدين الرملى» ، ولكن الفتنة لبثت قائمة ، وخصومه ينالون من عرضه ودينه ، حتى اتصل بهم ، وأرسل إليهم نسخته الأصلية ، وعليها إجازات الفقهاء وحملة الشريعة من أهل المذاهب الأربعة ، وهم « أحمد بن عبد العزيز بن على الفتوحى » الشهير بابن النجار (حنبلى) و « ناصر الدين اللقانى » (مالكى) و « شهاب الدين أحمد بن يونس » (حنفى) وشهاب الدين الرملى (شافعى) ، وعندئذ انكشف دس خصومه وحساده ، وبرئت ساحته .

ولما سكنت الفتنة ، أخذ حساده يشيعون فى مصر ومكة ، بأن العلماء الذين ذادوا عنه وأجازوا ما كتبه ، قد بان لهم مروقه وإلحاده ، فعدلوا عن رأيهم فيه وحسن ظنهم به . ولما استطارت هذه الإشاعة ، رد الشعرانى كتابه إلى العلماء الذين أجازوه ، ليعاودوا الاطلاع عليه ، ففعلوا ، وأثبتوا تحت إجازاتهم الأولى ماينبىء عن استمرار مرضاتهم عنه ، واعتقادهم فى صدق ولايته.

وسكنت الفتنة مرة أخرى ، ولـكن خصومه فى معسكر الأزهر ما زالوا يضيقون به ، ولا يخفون تبرمهم به كلما رأوه ، ومنهم من سعى إلى اغتياله .. ! ومن أمّل فى إمكان نفيه بعيـدا عن مصر .. ! ومن شهّر بجهـله بالشريعة والحقيقة على السواء[1] .. !

تصوف أنصاره من الفقهاء :

هـذه هى الفتنة كما بدت فى الـكثير من كتبه ، ولـكننا لاحظنا أن الفقهاء الذين نهضوا لنصرته ، يتّسمون بطابع صوفى ملحوظ ، وهذه ترجمته لهم تشهد بما نقول ، إذ يروى عن الفتوحى الحنبلى + ٩٤٩ أن طالبا طلب إليه أن يقرأ المنطق عليه ، فقال له : إن الفقه قد صار ثقيلا على قلبى ، فـكيف بعلم أفتى بعض العلمـاء ـ كابن الصلاح ـ بتحريم الاشتغال به .. ؟ فقال له الطالب : يا مولانا إن العلم عبادة ، فقال له الشيخ : هـذا صحيح ، ولـكنى لا أجد فى العلم « رقة قلب » بخلاف ما أستشعره عند ذكر الله واستغفاره ،

(١) البحر المورود فى مقدمته و ص ٣٧٦ والجوهر المصون ١٦ ولطائف المنن ع ١ ص ٣ و ٤٧ و ع ٢ ص ٢٣١ و ٢٨٠ واليواقيت ع ١ ص ٦ ـ ٧ وتكميل النور ٦٦٢ وبهجة النفـوس ص ٩ والميزان ع ١ ص ٩ ولخص الفتنة : « بروكلـان » وغيره من المستشرقين .

وهـذا بالإضافة إلى أن فضل العلم على غيره مشروط بالإخلاص ، وما أظن أن بى إخلاصا[1] .. ! وما نظن هذا لحديث فقيه ...

ويقول عن اللقانى المالكى + ٩٥٨ ، إنه كثيرا ما يذهل عن نفسه حين يغلبه تعظيمه لله ، وأنه قد يغادر الجامع الأزهر ، فلا يهتدى إلى مكان بيته ، فيأخـذ الأطفال يده ويرشدونه إلى منزله .. ! والأدنى إلى الصواب ـ فيما يلوح لنا ـ أن يقال إن هذا مسلك الدراويش وليس مسلك الفقهاء

ويقول عن شهاب الدين إنه كان يتهجد كل ليلة بثلث القرآن الكريم[2] وأظن هذا ما نلحظه عند أرباب الطريق .

فهل معنى هذا أن الأزهر ـ وهو معسكر الفقهاء ـ قد خلا من أنصاره..؟ هذا بعيد الاحتمال

مدى تأثره بخصومة الفقهاء

ولكن الشعرانى يحاول أن يستخف بهذه المناوأة ويستهين بأهلها ، فيورد ـ وهو فى معرض حديثه عن مثل هـذه الخصومة ـ أقوال غيره ممن يؤيدون هذه النظرة ، إذ يسره أن يقيم الله له عدواً يؤذيه فى عرضه ، أسوة

---

(١) الغزى فى الكواكب السائرة ج ٢ ص ١٩٣ ـ ٤ والطبقات الوسطى ٢٨٧

(٢) الطبقات الوسطى ٢٨٨ ـ ٩

بالأنبياء والأولياء ، والنبي لا يفقد حرمته إلا فى بلده ، وما وجد قط حليم فى قومه ، إلا تولوه بالبغى والحسد والعدوان ، وأزهد الناس فى الأنبياء والعلماء الأقربون ، وما كان كبير فى عصره إلا كان له عدو من السفلة ، لآدم إبليس ، ولنوح حام ، ولموسى فرعون ، ولمحمد ﷺ أبوجهل ... وقد اتهم عبدالله بن الزبير بالرياء والنفاق فى صلاته ، فصبوا عليه ماء حميا ، حتى زلع وجهه ورأسه ، فلما فرغ من صلاته سأل عن شأنه ، فلما عرف أمره قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . . ! وقد كابد الأئمة عنتا شديداً ، فقاسى أبو حنيفة مع الخلفاء ، واستخفى مالك خمساً وعشرين سنة لا يخرج لجمعة ولا جماعة ، وعانى الشافعى من أهل العراق ومصر ، وكابد ابن حنبل الضرب والحبس ، واتهم بالزندقة كبار الصوفية من أمثال أبى مدين وأبى الحسن الشاذلى ومحيي الدين بن عربى . . والإنكار على هؤلاء ـ فيما يقول ـ قائم فى كل زمان ومكان ، فليس بدعا أن تحوط الشعرانى الظنون ، وتثار حوله الشائعات(١)

على أن الشيء الذى لا يكاد أن يرتقى إليه الشك ، هو أن هذه الشائعات قد أثارت جزعه ، وأشاعت القلق فى نفسه ، حتى أكثر من عرض كتبه على الفقهاء وأئمة الدين فى عصره ، لإقرارها وإجازة ما تتضمنه من

(١) اليواقيت ج ١ ص ١٢ ـ ١٤

آراء[1] ! وكرر فى الكثير من مؤلفاته ، حرصه على إعلان اتفاق تعاليمه ، مع ظاهر الكتاب والسنة ، اتقاء لكل ريبة ومظنة ، ودفعا لكل اتهام يحتمل أن يكون مثاراً لمثل هذه الفتنة[2]

بل كان من فرط الجزع ، يخرج على المألوف من عنجهيته واعتزازه بنفسه و بعلمه ، فيطلب إلى فقهاء المذاهب الأربعة ، فى تواضع وديع رقيق ، أن يصلحوا مايحتمل أن يكون قد وقع فيه من أخطاء ، عندما وضع « الميزان الكبرى » ، لأن استحضاره لكل ما يتطلبه الموضوع أثناء التأليف ، أمر عسير شاق[3]

بعض مآخذه :

على أن هذا قد لا يعفيه من الملامة ، إن جاز لنا أن نأخذ بظاهر ألفاظه ، وقد حذر ــ على ما سنعرف عند ما نعرض لموقفه من ابن عربى ــ من المبادرة إلى الإنكار ، عند مايعز التوفيق بين كلام أهل الكشف وقواعد الشرع ، فإن أغفلنا هذا التحذير ، لم نعدم فى ظاهر آرائه ما يثير الحيرة ، و يدعو إلى الظنون ، فمن ذلك أنه ــ فى بعض نصوص له ــ رفع الولى إلى مرتبة الأنبياء ، بل

(١) قارن مقدمة الميزان ج ١ ص ٤ وغيرها من مقدمات الكثير من كتبه .
(٢) قارن مقدمة آداب العبودية فى تفسيره للهاتف .
(٣) قارن الميزان ج ٢ ص ٢١١

رجح كفته فى مراتب التقدير .....! فالأولياء قد أوتوا القدرة على الاطلاع على علوم الأنبياء من غير وساطة ، ولولا أن الله طالبهم بعدم ادعاء ما ليس لهم ، لادعوا النبوة .. !

والجيلانى يقول : أوتيتم معاشر الأنبياء اللقب ـ النبوة ـ وأوتينا مالم تؤتوا[1] ! رغم أنه نفى عن شيخه الأكبر ـ ابن عربى ـ إيثاره للولى على النبى ، كما سنعرف بعد قليل .

وقد أخذ الشعرانى فى تشبيه الولى بالله تعالى ، فالله إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ، والولى على هذه المقدرة بفضل من الله ، ومن هنا كانت الدنيا فى ركابه ، تستجيب لأمره وتنصاع لإشارته[2] ، والله لاتأخذه سنة ولانوم ، وتلك من صفات الأولياء ، وإن كانت يقظة الله دائمة ، ويقظة الأولياء إلى أمد ، قد يمتد سبعة عشر عاماً لا يغمض لهم فيها جفن[3] ! والله مطلع على الخواطر ما ظهر منها وما بطن ، لا يسترها عنه حجاب ، وهذه من صفات الأولياء[4] ! الخ

على أن الإنصاف يقتضينا أن نشير إلى أن فى الإمكان أن يكون حساد الشعرانى ، الذين نفسوا عليه مكانته ، قد زيفوا أقواله ، ودسوا عليه ما ليس

(١) الجواهر والدرر ٢٧٨
(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٦ ولطائف المنن ج ١ ص ٥٥
(٣) الجواهر ١٤١
(٤) المصدر نفسه ١٧٩

منها ، وأن ماوصل إلينا من آرائه ، التى لا تتمشى مع ظاهر الشرع ، أثر من آثار هـذا الدس والتزييف ، على أن عكس هذا الاحتمال يدخل فى باب الإمكان !

وإذا كنا قد صرحنا بأن خصومة الفقهاء له ، قد أزعجته وأثارت قلقه ، فإن هذا يتمشى مع ما لاحظه المستشرق « ڤولرز » Vollers من قبل ، حين أشار فى معرض حديثه عن النزاع بين أهل الفقه ورجال التصوف ، إلى أن الغلبة كانت على الدوام للفقهاء ، وأن الشعرانى الذى كان ممثلا نابها للتصوف، شديد التمسك بتعاليمه ، لم يكن له مكان فى الأزهر[1] . ! وإن كنا نلاحظ من جانبنا ، أن سعة الحيلة عنده ، مع ما تهيأ له من تفوق فى العلم على أهل عصره ، قد مكنته من اكتساح خصومه ، وأكبر الظن أنه لو شاء التدريس فى الأزهر ، لما عز عليه ذلك ، ولـكنه كان ـ كغيره من أهل الطريق ، يؤثر حياة التصوف ، على مجرد الاشتغال بالعلم الظاهر ، بل كان يصرفه عن هـذا النوع من العلم ، استغراقه فى العبادة ، وانصرافه إلى أمر زاويته وشئون مريديه ... !

---

(١) مادة أزهر فى دائرة المعارف الإسلامية .

الفصل الثانى

الشعرانى مع شيوخ الطريق

صـــــادقـين وأدعيـاء

ولاؤه لابن عربى ودفاعه عنه:

أدرك الشعرانى فى صدر شبابه فحول أرباب الطريق فى مصر، فتلقى عنهم وسلك على يدهم، واتصل بكبار السلف من الصوفية، وعاش معهم فى آثارهم، وتأثر بهم تأثراً ملحوظا، وكان أكبر هؤلاء خطرا فى تصـوفه محيي الدين بن عربى + ٦٣٨هـ — ١٢٤٠م الذى غلب تأثيره فيه، ما كان لصفوة شـيوخه المقربين، من أمثال على الخواص وابراهيم المتبولى، وقد اسـتبد هوى هؤلاء الشيوخ بقلبه، حتى زاره ضيقا بعصره، وجعله أحس بسوءاته، وأعظم إدراكا لمواطن الضعف عند معاصريه .. !

ولـكن ابن عربى ـ وقد كان تأثيره عليه غلابا ـ كان مثار ضيق ومحط اتهامات، وجهها إليه الـكثيرون من الفقهاء، ولا سيما السلفيون منهم، وحسبه

أن يكون صاحب نظرية فى « وحدة الوجود » انتفى معها التمييز بين الخالق والمخلوق[١] ! ولكن الشعرانى يتصدى للدفاع عنه ، ويحذر من التسرع فى الإنكار على أمثاله من أهل الكشف ، لأن تصوفهم ، ليس إلا ثمرة التزامهم لظاهر الكتاب والسنة..! ولكن مراتبهم قد علت فى مجال الفهم «والذوق»، فجرت لهم مصطلحات تدق عن الأفهام ، حتى لتبدو من مقاماتهم ، وكأن ألفاظهم لا تجرى على ظاهر الكتاب ! والإنكار عليهم يتطلب السبق إلى التعمق ، وتذوق معجزات الرسل وكرامات الأولياء ، والاطلاع على كتب التفسير والتأويل وشرائطه ، والتبحر فى معرفة لغات العرب ومجازاتها واستعاراتها ، والبلوغ فى هذا إلى غايته ، والعلم بمقامات السلف والخلف ، والتوسع فى أصول الفقه ومعرفة منازع أئمة الكلام . وأهم من هذا كله ، الألمام بمصطلحات الصوفية فيما عبروا به عن التجلى ونحوه

ويتصدى الشعرانى لتفسير « وحدة الوجود » عند ابن عربى ، بحيث تبدو على اتساق مع ظاهر الشرع . ! فيعرض ما رواه عنه المنكرون من قوله : لا موجود إلا الله ، ويقول إذا صحت نسبة هذا القول إليه كان

---

(١) انظر مادة ابن عربى فى دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) للأستاذ « وير » T. H. Weir وتعليق « الدكتور أبو العلا عفيفى » عليها ، وبحثه فى المجلد الأول من مجلة كلية الآداب فى مايو سنة ٩٣٣ وكتابه القيم

The Mystical Philosophy of Ibnul' Arabi.

مراده أن ليس ثمة موجود قائم بنفسه غير الله ، وكل ما سواه من الموجودات يقوم بغيره لا بذاته ، ومن كانت حقيقته كذلك ، فهو إلى العدم أقرب وأدنى ، لأن وجوده مسبوق بعدم ، ومتردد بين وجود وزوال ... ! والمظنون أنه قال : لا موجود إلا الله ، حين تلاشت عنده الكائنات ، عند ما تجلى له الحق فشهده بقلبه ، وقد صدق « الجنيد » حين قال : من شهد الحق ، لم يرَ الخلق .. !

وإذا كان خصوم ابن عربى ، يتهمونه بأنه جعل الحق والخلق واحدا ، حين قال : فيحمدنى وأحمده ويعبدنى وأعبده ، جاز تأويل الحمد بالشكر ، فيكون تفسير كلامه ، فيشكرنى تعالى إذا أطعته .. ويبرر هذا قوله تعالى : اذكرونى أذكركم وأما قوله فيعبدنى وأعبده فقد أراد بها يعطينى بإجابته دعائى ، وقد قال تعالى لا تعبدوا الشيطان ـ أى لا تطيعوه ، إذ لا يعبد الشيطان أحد كما يعبد الله تعالى .. !

ويمضى الشعرانى فى هذا الدفاع حتى يعرض لاتهام شيخه ، بأنه آثر الولى على الرسول ، فينكر صحة هذا الاتهام ، ويقول إن الشيخ كان يرى أن الناس إن اختلفوا فى رسالة النبى ﷺ وولايته ، وحاروا فى أى الاثنتين أفضل ، وجب إيثار ولايته لشرف المتعلق ودوامها فى الدنيا والآخرة ، على عكس الرسالة التى تتصل بالخلق ، وتنقضى بانقضاء التكليف ، فالكلام

مُنصب على رسالة النبي وولايته ، لا على المفاضلة بينه و بين غيره ، فى الرسالة والولاية .. الخ

آمن الشعرانى بأن علم شيخه قائم على الكشف والتعريف ، مُطهر من الشك والتحريف ، وأن ما يكتبه لا يصدر عن روية وفكر ، بل عن فيض إلهى ونفث ربانى على يد ملك الإلهام ، فهو « إملاء إلهى و إلقاء ربانى أو نفث روحانى » فى روح كيانه ، « بحكم الإرث للأنبياء والتبعية لهم » . إلى آخر ما يرويه عنه[1] ، فكل ما اتهم به مما لا يساير (ظاهر) الشرع مدسوس عليه لا محالة . ! ! وقد شهد بهذا من يوثق فى إيمانهم ، بل تشهد به كتبه المروية عنه بالسند الصحيح، وقد وضع الشعرانى كتاب « لواقح الأنوار القدسية » ولخص فيه « الفتوحات المكية لا بن عربى » وخص به العلماء الأكابر ، إذ « ليس لغيرهم منه إلا الظاهر » ثم انتخب منه كتابا سماه « الكبريت الأحمر فى بيان علوم الشيخ الأكبر » ـ فى جزءين ـ ووضع « اليواقيت والجواهر ، فى بيان عقائد الأكابر » ـ فى جزءين ـ حاول فيه التوفيق بين عقائد أهل الكشف والعيان ، وعقائد أهل الفكر والاستدلال ، وأقام هذا الكتاب كله على أقوال ابن عربى

---

(١) اليواقيت ع ١ فى المقدمه والفصول الثلاثة الأولى ، وقد لخص الأستاذ نيكلسون R. Nickolson فى كتابه السالف (ص ٤٠٣) موقف الشعرانى من الاتهامات التى يوجهها إليه خصومه

فى الفتـوحات وغيرها من آثاره ، وفيـه يصرح بأن الشيخ أبا طاهر المزنى الشاذلى ، قد أنبأه بأن جميع ما فى كتب ابن عربى ، مما يخالف (ظاهر) الشريعة ، مدسوس عليـه . ! لأنه رجـل كامل بإجماع المحققين ، والـكامل يجوز فى حقه شطح عن « ظاهر » الـكتاب والسنة .. ! ومن آثار الشعرانى التى لا تزال مخطوطة « سواطع الأنوار القدسـيـة ، فيما صدرت به الفتوحات المـكية » ، وقد جمعها فيما يقول بأشارة من صاحب الفتوحات فى رؤيا وقعت له أثناء النوم ، وله رسالة صغيرة سماها « القول المبين فى الرد عن محيي الدين » ولها نسخة أخرى تحت عنوان « تبرئة الشيخ الأكبر » يحاول فيها أن يبرئه من القول بقدم العالم أو الحلول أو الاتحاد أو نحوه .. ! ويزعم أنه عثر على نسخة بخط ابن عربى ، تحقق منها أن كل ما اتهم به مدسوس عليه ، وعرض للـكلام على علومه وأحواله ، فى كتاب « تنبيه الأغبيـاء على قطرة من بحر علوم الأولياء[1] » ، والمتتبع لـكتب الشعرانى لا يملك إلا القول بأنه كان فى مصر، بوقا لترداد الآراء التى نسبت إلى ابن العربى، مع ملاحظة مبالغته فى الدفاع عنه ، وتأويل أقواله ، حتى نفى عنه القول بوحدة الوجود ، واستبعد من حياته الشطحات الصوفيـة ، وأبداه وكأنه فقيه من أهل السنة .. !!

وهذا نزوع يبدو فى عنوان كتاب له ، ورد فى بركلمان[2]

(١) الطبقات الـكبرى ج ٢ ص ١٦٠

(٢) هو كتاب « الفتح فى تأويل ما صدر عن الـكمل من الشطح » مخطوط فى مكتبة ولى الدين بتركيا .

صلته بالخواص

أما عن كثرة شيوخه من أهل التصوف فى عصره ، فحسبنا منهم « على الخواص » و « إبراهيم المتبولى » ، فأما أولهما فلا يكاد يخلو من ذكره كتاب من كتبه ، وهـذا مضاف إلى كتب خص بها أقواله ، أشهرها « الجواهر والدرر الكبرى » الذى ضمنه إجابات الخواص على أسئلة وجهها إليه، خلال صحبته له سنوات طوالا ، ـ وهو لا يزال مخطوطا ـ ثم « الجواهر والدرر الوسطى » وضمنه بعض ما أفاد عن شيخه ، واستقى الكثير من مادته عن الكتاب السالف ، ثم « درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص » وهى إجابات على أسئلة وجهها إليه كذلك . وقد عرض للحديث عن مناقبه وكراماته وأحواله فى طبقاته الكبرى والوسطى ، ولطائف المنن وغيرها من مصنفاته ، وكل ما أفاده منه ، استقاه عن شخصه مشافهة ، لأن الخواص كان أميا على ما عرفنا

صلتـــه بالمتبولى :

أما ابراهيم المتبولى فقد كثر ذكره بالخير فى كتب الشعرانى ، وقد وضع سفراً ضخماً فى بضع مئات من الصفحات ذات الحجم الكبير (٥٩٠ صفحة) ضمنها ما خاله من أخلاق شيخه وسماه « الأخلاق المتبولية » ـ وهو

لا يزال مخطوطا ، ثم وضع « المنح السنية على الوصية المتبولية » وضمها التعليق على وصية شيخه ، وهذا كله يصاحبه ترداد اسمه ، و إضافة الصفات الطيبةله فى جل مصنفاته.

وكان المتبولى ـ مع هذه المكانة ، التى تهيأت له عند الشعرانى ـ مثاراً لاتهامات مروعة ، اتُّهم بالفسق فى الغلمان ، وعدم إقامة الصلاة .. ! ويروى الشعرانى هذه الاتهامات ، و يعقب بردها و بيان وجه الباطل فيها ، فيقول إن بعض فقهاء الأزهر ، ناموا ليلة فى زاويته ، فلاحظوا وجود « مملوكين أمردين من أبناء الأمراء ، ينامان معه فى الخلوة» ، فأنكروا ذلك ، ورفعوا أمر الشيخ إلى الشرع ، فأرسل القاصى فى طلبه ، وأنبأه بدعوى المنكرين ، وحرمتها فى الشرع إن صحت ، فسلم المتبولى بالاتهام ، « وقبض على لحيته بأسنانه ، وصاح فيهم ، فخرجوا صائحين ، لم يعرف لهم خبر بعد ذلك » ، حتى تسامع الناس بأنهم « أسروا فى بلاد الإفرنج ! فشفعوا فيهم عند الشيخ فلم يقبل شفاعة أحد » واختفت بعد هذا أخبارهم[1] .. !

يقول الشعرانى « وكان رضى الله عنه ، لا يراه أحد يصلى الظهر فى مصر أبدا » ! فأنكر عليه بعض الفقهاء ذلك ، ولكن أحدهم سافر إلى

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٧٦ .

الشام ، فوجـد الشيخ المتبولى يصلى هناك ، فسأل خادم المسجد فى ذلك ، فأنبأه هذا بأن المتبولى يقيم صلاة الظهر هناك دواما .. ! فرجع عن إنـكاره.. وبمثل هذا يدافع الشعرانى عن أستاذه[1] !

شخصيته فى كتاباته عن شيوخه :

على أن تصوير الشعرانى لابن عربى ، يبرر القول بأنه كان يبتلع أقوال شيوخه ، ويبديها على صورة تلائم منطقه ، ولهـذا بدا هؤلاء الشيوخ فى مؤلفاته على صورة واحـدة ، رغم أن بين فلسفة ابن عربى الصوفية ، وأمية أمثال الخواص والمتبولى ، هوة سحيقة القرار .. ! ولـكن الشعرانى إن عرض للممتازين ، هبط بهم ، وإن تحدث عن الأميين ، ارتفع بتفـكيرهم ، ومن هنا بدا التشابه بين شيوخه على ما بينهم من فوارق فى الثقـافات ، ووجوه الفهم ودقة الإدراك ، ولهذا آثرنا ألا نفرد لـكل منهم حديثا ، وأن نَتَقَصَّى الشعرانى كما يبدو « فعلا » فى مؤلفاته .

شيوخ الطريق فى نظره

ويكاد المتتبع لآثار الشعرانى ، أن يجزم بأنه يقسم شيوخ الطريق — ومريديه والناس أجمعين — فريقين لا وسط بينهما ، أطهارا أبرارا ، وفجرة

(1) الطبقات الـكبرى ج ٢ ص ٧٧

أشرارا ! فهو يرتفع بشيوخه إلى مرتبـة التقـديس والتنزيه ، وينحط بالكثيرين من أقرانه إلى مرتبة الأدعياء والدجالين ، وربما كان مردّ هـذا إلى شيوع الدجل والادعاء فى التصوف إبان عصره ، وهو من أجل هذا يكثر من مهاجمة الأدعياء ، ويوظف قلمه فى محاربتهم ، وتشهد بهذا عنوانات الكثير من كتبه ، مثل : ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى (مخطوط) و « تنبيه المغترين فى أواخر القرن العاشر، على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر » مخطوط ـ إلى آخر ما نراه فى ثبت كتبه ، فى « بروكلمان » وغـيره ، وليس من بينها ـ فيما عرفنا مما وقع لنا منها وهو بضع عشرات ـ إلا ما تضمن ضيقه بالأدعياء، وحمـلاته العنيفة على سلوكهم ، وإكباره لمن ظنهم صادقين فى طريق الله ، وإكثاره من التمدح بأخلاقهم ، والدعوة إلى الاقتداء بهم .

وهكذا لا يكاد يخلو كتاب له من شَنّ الحمـلات على هؤلاء الأدعياء ، وتذكيرهم بما ينبغى أن يكون عليه أرباب الطريق ، مما تمثل فى شيوخه الذين تساموا إلى مرتبة التنزيه ، وتحاموا السقوط فى حمأة الرذائل .

مقاومته لمعسكر الصوفية الداعين للجهل

وليس أدل على الجو الذى عاش فيه الشعرانى ، من انقسام أرباب الطريق إزاء العلم فى عصره ، إلى معسكرين : يبشر أحدهما بالتصوف بعد التبحر فى

الدين وعلومه ، ويجهر ثانيهما باحتقار هـذه الدعوة ، ويصرح بأنها امتهان للطريق وتعطيل لأسبابه ، وقد أشار المناوى + ١٠٣١ إلى أن زعامة الطريق، قد آلت بعـد الفتح العثمانى ببضع عشرات من السنين ، إلى رجلين يمثلان المعسكرين السالفين ، هما الشعرانى ومحمد كريم الدين الخلوتى ، وروى مايؤيد هاتين النزعتين المتضادتين ، فقال إن الشعرانى قد سأل الخلوتى عن مسألة فى الوضوء ، فأعلن هذا جهله بها ، رغم ما أصاب من شهرة بين الناس والأمراء ، فقال له الشعرانى إنك لا تصير فقيرا بغير علم ، فقال الخلوتى علمنى . فشرع الشعرانى فى تعليمه، ثم زاره مرة ثانية ليواصل تعليمه، فأغلق هذا باب زاويته فى وجهه .. ! فعاده مرة ثالثة ، عسى أن يتمكن من تعليمه ، فأساء الخلوتى استقباله ، وأغلق الباب فى وجهه ، وقال لمريديه ساخرا : «إن الشيخ الشعرانى طلب أن يجعلنى فقيهـا وأنا صوفى » قال الشعرانى ففهمت من كلامه ، أنه اعتقد أنى دعوته إلى أمر فيـه نقص .. وقد أخـذ الخلوتى ومريدوه يهزأون بالشعرانى، ويقولون إنه يريد أن يجعلنا فقهاء مثله[١] .. !!

وقد ندد الشعرانى بهذا النوع من شيوخ الطريق فى الكثير من مصنفاته، فروى فى معرض الحديث عن جهالة بعض مشايخ الأحمدية والبرهامية فى عصره، أنه سأل واحدا منهم عن قواعد الإيمان ، فقال لا أدرى .. ! فسأله عن فروض

---

(١) طبقات المناوى الكبرى ٥١٩ و + ٥٢٠ وتكميل النور السافر ٧٥٢

الوضوء ، فقال لا أدرى .. ! فسأله عن شروط الصلاة ، فقال لا أدرى .. ! فسأله عن أركان الصلاة فقال لا أدرى ! ويقول معلقا على هذا « مع أنه شيخ فى زاوية يأخذ العهد ، ومثل هذا ليس شيخا باجماع المسلمين »[١]

وروى عن أحد هؤلاء الجهال ، أنه صرح للشعرانى مرة بأنه لم يقرأ فى العلم شيئا ، ولا يعرف عن شروط الصلاة والوضوء كثيرا ولا قليلا .. ! فقال له الشعرانى : إن تصحيح العبادات على ظاهر الكتاب والسنة ، واجب بإجماع المسلمين ، ومن لم يفرق بين الواجب والمندوب ، ولا بين الحرام والمكروه فهو جاهل ، والجاهل لا يجوز الاقتداء به فى طريق الظاهر ولا فى طريق الباطن فخرس الشيخ ولم يحر جوابا ، وانقطع عن زيارة الشعرانى بعد ذلك[٢] !

وقد جاهر الشعرانى بأنه يناوئ كل من خالف صريح الشرع أو الإجماع من أهل الطريق ، ولكنه لا يأخذهم بما يشاع عنهم ، ولا يعمم فى الاتهام حيث ينبغى التخصيص ، فقد تجمع الطائفة الواحدة بين الصادق والدعىّ ، وإن كان يتهجم فى بعض الأحيان عن غير حيطة ولا حذر ، فنراه يصرح بأن الملامتية والحيدرية وأكثر فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقيـة خارجون على شريعة الله ، لأن أفعالهم يكذبها طريق

---

(١) قواعد الصوفية ١٧٦

(٢) تنبيه المغترين ٤

شيوخهم ، من الصدق والزهد وصحيح الكرامات والتقيد بظاهر الكتاب والسنة وهو من أجل هذا يتعقب الأدعياء فى غير رفق ولا رحمة ، فيصب عليهم مطاعنه ، ويرميهم بالجهل والكفر وسوء الأدب ، ويعتبرهم أضلّ من الأنعام ، وأبعد عن الله من عامة الفلاحين ، لأن المشيخة على يدهم قد أصبحت طريقا إلى الشحاذة والتسول ، وهانت حتى فى أعين طغام الناس ، حتى أن الشعرانى حين سأل أحد التجار ، عن السبب فى عدم اجتماعه بشيخ من هؤلاء ، قال له إن كان هـذا شيخا فأنا شيخ مثله ، كلانا يحب الدنيا ويسعى إليها ، بل إنه يرحل إلى تركيا فى طلبهـا ، ويأكل من وراء ادعائه ، فأنا أحسن منه حالا ! بل بلغت الغفلة بأحد المريدين ، أن احتاج إلى المال فى تزويج ابنة له ، فمضى إلى أحد التجار ، ملتمسا قرضا فى نظير رهينة من شعر ، أخذه من رأس شـيخه ! فقال له التاجر ساخرا متهكما ، لو أعطيتنى أردبا من شعر شيخك ، ما أخذته بجديد .. ! فأثار هذا ضحك الناس فى السوق مدة من الزمان وهكذا هان أرباب الطريق على النـاس حتى أضحوا مثـارا للسخرية .

أساليب الأدعياء فى الترقى إلى المشيخة

ولم يكن هذا غريباً ، متى عرفنا أساليب هؤلاء الأدعياء فى اكتساب المشيخة ، كما يشير إليها الشعرانى فى مختلف كتبه ، إذ كان الرجل يذيع

بين الناس ، أنه سمع هاتفاً فى يقظته أو منامه ـ يناديه بالمشيخة ، فيلبى نداءه ، والناس من فرط السذاجة يذعنون لدعواه ، ويتحملون فى استقباله وإقامة الولائم مالا طاقة لهم به..![1] ، أو كان يجتمع بمن لا قدم له فى الطريق ، ويتلقف منه بضع كلمات فى الفناء والبقاء والشطح وغيره ، مما لا يتصل بظاهر الكتاب والسنة ، ثم يرتدى جبة ويرخى عذبة ، ويستقل بنفسه شيخاً ، يستقر فى مكان خرب أو نحوه، متظاهراً بأسباب الطريق..![2]، أو كان يقنع بالتظاهر بالزهد فى طلب الدنيا ، والتقشف فى مأكله وملبسه ، وانقطاعه للذكر والتهجد ، وإطالة الصلاة والإكثار من الصيام وقيام الليل ونحوه ، حتى إذا اطمأن إليه الناس ، تقدم إليهم شيخاً ، من غير أن يسبق إلى السلوك على شيخ صادق يجيزه..![3] ، أو كان يدعى التتلمذ على أحد الموتى من الأولياء ، فتصادف دعوته هوى من نفوس السذج ـ وما كان أكثرهم ، فإن مات خلفه ابنه أو أحد أقاربه أو مريديه ، وهذا ما فعله شيوخ الأحمدية والبرهامية والقادرية والمطاوعة وغيرها فى عصره[4]، ولما كان هذا كله لا يستقيم مع فهم الشعرانى للطريق وأسبابه ، ولا يتمشى مع أبسط قواعد التصوف

---

(١) ردع الفقراء ص ٢٠
(٢) تنبيه المغترين + ٤
(٣) قواعد الصوفية ٣ والمناقب ٦٣ ـ ٦٤
(٤) لطائف المنن ج ١ ص ١٢ و ١٤ و ٢٨٩

فى رأيه ، فقد تصدى لمهاجمة أهله ، ونال منهم شر منال ، وليست حملاته عليهم بالشىء الهين اليسير ، فقد تهيأت له الصدارة فى التصوف ، حتى كان أرباب الطريق كثيراً ما يرجعون إليه كلما أشكل عليهم أمر ، أو خامرهم الشك فى رأى لأحد السلف من أهله .

ولكن لا ينبغى أن تنسينا مرارة حملاته ، مالاحظه المستشرقون من أمثال « ڤولرز » ، من أن الرجل كان واسع الصدر ، متسامحاً حتى مع المسيحيين واليهود، فى عصر ساده التعصب الدينى، بل كان يثنى على تواضع هؤلاء الذميين ، و يضعهم مثلا أعلى للمسلمين ، ويحذر من التورط فى التكفير ، مخافة الله . . . . ورغم أنه كان شافعى المذهب ، فقد وضع « الميزان » و « كشف الغمة » ليوفق فيهما بين المذاهب الأربعة ، ووضع « اليواقيت » للتوفيق بين أهل الذوق والكشف ، ـ رجال التصوف ـ وأهل الاستدلال والفكر ـ علماء الدين ـ وليس أدل من هذا كله ، على رحابة صدره وسخاء تسامحه[١]

على أننا لا نجد فى حملاته على أقرانه من شيوخ الطريق فى زمنه ، مدعاة لدهشة ، فلو خلت حياتهم من المطاعن ، لكان حسبه تطلعه إلى الظفر

(١) Vollers فى دائرة معارف الدين والأخلاق .

بالسيادة الروحية فى عصره ، وحرصه على أن يقى التصوف إنـكار خصومه ، مبرراً لهذه الحملات ... ! ولـكن هذا وحده ليس مثار ضيقه وهجومه ، فإن روح العصر ، قد تـكفلت بإثارة المخلصين من أهل الطريق ، ودفعهم إلى معاداة الأدعياء ـ ولو كان هؤلاء المخلصـون دعاة سـلام ووئام ـ كما كان الشعرانى نفسه .. !

الفصل الثالث

الشعرانى مع المريدين والمجاورين

التصوف والغرائز الإنسانية :

الطريق عنـد أهله ، محاولة ترمى إلى تعطيل بعض الغرائز عن أداء وظيفتها ، قهراً للجسم ، وتسامياً إلى العزوف عن مطامع الدنيا ، بالتربيـة الروحية الشاقة ، رغبة فى طمس الذاتيـة والأنية ، وإغراء بالتفانى فى حب الله ، واتباع ما يرضيه وتجنب ما يغضبه ، من غير طمع فى ثوابه ، أو خشية من عقابه ، ولـكن بعض الصوفيـة قد استجابوا لنداء فطرتهم فى توكيد النفس وحب السـيطرة Self - Assertion وتجلت هـذه الظاهرة أوضح ما تكون ، فى موقفهم إزاء المريدين والمجـاورين فى زواياهم ، فجمعوهم على الحب والطاعة ، وجعلوا أنفسهم وسطاء بينهم و بين الله ، الذى تتسامى إليه سبحات كل متصوف ، وفى سبيل تحقيقهم لهذه الغاية ، حطموا شـخصية المريد وأهدروا كرامته ، فسلبوه أبسط حقوقه ، وأثقلوه بالواجبات والتبعات ، فما موقف الشعرانى من ذلك ؟

الحب عند المريدين:

جعل الشعرانى أولى مراتب هـذه الغاية ، تفانى المريد فى حب شيخه ، حتى يلذ لحديثه وكأنه فى حال جماع ! ويؤثر مرضاته على مرضاة زوجـه وأولاده ، والاستجابة لرغباته وشهواته ، لأن محبـة الشيخ مرتبة إدمان ، يترقى منهـا المريد إلى محبة الله ، ومن دلالات الطاعة الانصياع لأوامره ، ولو اقتضته القيام بأحط الأعمال وأشق الخدمات ، أو كلفته هناءته فى بيته ، فلا يتردد فى العزوف عما أحل الله من متع ، ولا يتلـكأ فى تطليق زوجه إن أمره بذلك شيخه ، فبمثل هذه الطاعة يكون السلوك المرجّى ..!

والشيخ وسيط المريد إلى ربه ، ومن هذا وجبت محبة المريد لشيخه ، وإلا كان منافقاً ، مكانه الدرك الأسفل من النار ، والمريد الصادق تغنيه محبة الشيخ عن الطعام أياما ، لأن النظر إليه يسد جوعته ، وكثيراً ما كف ابن عربى عن الطعام ، استغناء بمحبته لشيخه ـ أبى مدين ـ ، وعلى هـذا كان الصادقون من أهل التصوف ، والحب متى صدق ، شغل صاحبه عمن يحب ، فقد وفدت « ليلى » على مجنـونها ذات يوم ، وهو يناديها متلهفا ، فأقرأته السلام وأنبأته بأنها ليلى معبودته ، فلم يعبأ بوجودها وقال لهـا : إليك عنى ، فقد شغلنى عنك ما أحمله لك من صادق الحب . . . ! والحب الصادق

يلهب القلب حتى ليذيب ما يمسه من ثلج ، وقد روى ابن عربى ـ فيما يذكر الشعرانى ـ عن محب أنه دخل على شيخ يتكلم فى المحبة ، فما زال هذا المحب ينحل ويذوب ويسيل عرقا ، حتى تحلل جسمه بين يدى الشيخ واستحال بركة ماء ... ! وأقبل بعض أصحابه واستفسروا عنه ، فأشار الشيخ إلى الماء قائلا : هوذا . ! فأدهشهم أمره[1]

آداب المريدين

ويحرص الشعرانى على وضع آداب ينثرها فى شتى مؤلفاته ، ويلزم بها المريدين، فالمريد الذى يبلغ هذه المرتبة فى محبة شيخه ، لا يباح له أن يشرك به أحداً من أقرانه ، ومن الحمق غفران مثل هذه الخطيئة ، إذ لم يقع لأحد من المريدين أن يسلك الطريق على يد شيخين ، ثم يصل بعد هذا إلى مقامات الرجال، ومن هنا كان على المريد، أن يؤمن بأن شيخه أقدر الناس جميعاً على تربيته ، وأن يتحامى الاستماع إلى وشاية أو ملامة توجه إلى شيخه ، ولو أجمع الناس على صدقها[2] ، فأن تهيأت له هذه المرتبة ، لزم شيخه وأبى أن يغادر زاويته إلى غيرها ، لا سيما وأن التنقل فى الزوايا ، يَشِى برغبته فى

---

(١) قواعد الصوفية ١١٦ ـ ٧ و ١١٩ ـ ١٢٠ و ١٢٦ و ١٩٣ و ٢٠٧ والعلوم المشهورة ص ٢٣

(٢) قواعد الصوفية ١٥٤ ـ ١٥٥ و ٢١٦ و ٢٣١

التمتع بأطايب العيش ، والإبقاء على مثل هذا المريد خطيئة ، وقد كان إسرافا من الشاذلي، أن يبيح لمريديه التحول إلى غيره ، متى بدا لهم ذلك ، لأن هذا لا يجوز إلا مع أكابر الصحابة الذين يفرقون بين المقامات ، أما ضعفاء الحال ، فأشبه ما يكونون « بالبهائم السارحة »[(١)] ولهذا وُكِل إلى شيوخهم النظر فى منفعتهم ، و إلزامهم باتباع ما يصدرون إليهم من أوامر ومن هنا حرمت على المريد زيارته لشيوخ عصره ، ولو طابت علاقتهم بشيخه[(٢)] وكم فسد من الزيارة مريدون ـ فيما يقول ابن عربي ـ فارقوا شيوخهم ثم تهجموا على حرمتهم وتولوهم بالطعن والتشهير ، مدعين أنهم لو وجدوا فيهم خيراً ، لما فارقوا صحبتهم ، ولهذا يأبى الصادقون من الأولياء، إعطاء عهد لمريد نكث عهد شيخه .

وليس للمريد أن يجادل شيخه ، أو يلح فى سؤاله ومناقشته ، أو يستفسر عن سر حنقه عليه وضيقه به ، أو إيثار غيره عليه أو طرده من زاويته[(٣)] ، فأن جالس شيخه ، وجب أن يكف عن كل حديث حتى يأذن له فى ذلك ، وعليه ألا يقدم على زواج أو سفر ، أو يعتزم النهوض بمشروع أو غيره ، حتى

---

(١) البحر المورود ٣٥٤ و ٢٩٥

(٢) المصدر السالف ٣٠٥ و ٢١٥

(٣) قواعد الصوفية ١٣٠ و ١٣٢ و ١٥٩ و ٢١٥ و ٢٣٠ ـ والبحر المورود ٣٣٦ .

يستأذنه فى ذلك . فإن أقدم على ارتكاب معصية ، سارع إلى الاعتراف على يديه[١] ، وقبول ما يفرضه من وجوه التكفير .[٢]

وما أصدق « أبا العباس المرسى » الذى حتَّم على الشيوخ أن يتفقدوا حال مريد يهم ، وأوجب على المريدين إخبار شيوخهم بما تضمره بواطنهم ، لأن « الأستاذ كالطبيب، وحال المريد كالعورة ، قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى » والمريد الذى يستحى أن يكاشف شيخه بأحواله ، يقيم الدليل على أنه غريب عن شيخه ، لم يمتزج بروحه بعد[٣] .!

ومن أخطأه التوفيق من المريدين فى اتباع هذه الآداب كان جزاؤه « الحرمان » من صحبة شيخه[٤] ، والطرد من زاويته ، وقد كان الشعرانى يفاخر بطاعة مريديه له ، وامتثالهم أوامره ، بالغاً ما بلغ الإجحاف على ظاهرها ، حتى كان إذا عتب على أحدهم زلة له ، أُلجم لسانه ولم يحر جواباً[٥] ، بل كان ـ فيما يقول ـ يربى خاصة أصحابه بالنظر ، من غير لفظ ولا إشارة ، شأن الكُمل من شيوخ الطريق ، من أمثال الشاذلى وأبى العباس المرسى والمتبولى والخواص[٦] والآداب التى يلزم بها الشعرانى مريديه ، كثيرة لا يتسع لها هذا المقام الضيق .

---

(١) قواعد الصوفية ١٦٩ (٢) الجواهر والدرر ٢٧٩
(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٤ (٤) قواعد الصوفية ٢٣٢
(٥) لطائف المنن ج ١ ص ١٨ (٦) المصدر السالف ١٩١

مهاجمته لاستخفاف المريدين بتقاليد الطريق :

ولنا أن نشير – بعدما أسلفناه من فصول هذا الكتاب – إلى أن الكثيرين من المريدين والمجاورين ، كان يعوزهم الأخلاص لطريق الله ، والصدق فى السلوك إلى حضرته ، وتدفعهم الرغبة فى تحقيق منافعهم الشخصية ، إلى التظاهر بالزهد والورع ، وقد صرح الشعرانى – فى البحر المورود وغيره من كتبه – بأن الفقراء الذين كانوا يقيمون فى الزوايا طاعمين كاسين ، لايحتملون من نفقات عيشهم كثيراً ولا قليلا ، وكثيرا ما كانوا يجمعون المال ويكنزون الذهب والفضة[1] ، فإذا وزعت فى الزاوية هدايا المحسنين ، خفوا إليها سراعا ، وتزاحموا على موزعيها من النقباء ، حتى يوقعوهم أرضا ، ويأخذوا ما بأيديهم غصبا ، ويلوذون بها فراراً[2] !

وقد قال الشعرانى عنهم فى لهجة الغاضب المحنق : ومن قواعد الرهبان ألا يدخروا للغد قوتا ، وألا يمسكوا فضة ولاذهبا ، وقد رأى راهبا أبى النظر إلى دينار ، طلب إليه أن يفحصه ، ليتبين فى أى عهد من عهود الملوك ضرب هذا الدينار ، وقال إن النظر إلى الدنيا مهىٌّ عنه عندنا . ! بل شهد الشعرانى الرهبان ذات يوم ، وهم يدفعون أمامهم راهبا ، ويلقون به خارج

---

(١) البحر المورود ٣٣٨ – ٩ (٢) المناقب الكبرى ١٠٥

الكنيسة ، لأنهم رأوا على عمامته نصفا مربوطا ، فقال لهم : أربط الدنيا مذموم عندكم ؟ فقالوا له : وعنـد نبيكم كذلك . ويعلق الشعرانى على مثل هـذا فى « قواعد الصـوفية » قائلا : « فإذا كان هذا حال الرهبان ، ففقراء المسلمين المقيمون فى الزوايا ، أولى بتركهم الدنيا ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم[1] » ، بل كان المجـاورون فى الزوايا كثيراً ما يضيقون بالطعام الخشن ، حتى أوجب الشعرانى طرد هؤلاء من الزوايا من غير تردد ، عظة لغيرهم من الأدعياء ، وفى عنوانات الـكثير من كتبه ، ما يشهد بضيقه بهم ومهاجمته لهم[2]

مناقشة موقفه من المريدين :

على أن الشعرانى ـ فى بعض ما أسلفنا من آرائه ـ لا يقيم على دعوة واحـدة ، فهو يحرم على المريد الاتصال بغير شـيخه ، وإلا كان مثله مثل الرجل الذى يتخذ له إلهين (! !) والمرأة التى تتخذ لهـا زوجين ، مع أنه يصرح فى الـكثير من كتبه ، بما ينقض هــذا الرأى ، فيفاخر فى « البحر المورود » بأنه يسر متى ظهر فى بلده شيـخ ، يتهافت عليه جميع أصحابه حتى ينفضوا عنه جميعا ، لأن استياءه من ذلك ، يشى بحبه للرياسة

(١) قواعد الصوفية ١٨٩
(٢) مثل « تطهير الزوايا من خبائث أهل الطوايا » مخطوط فى مكتبة عشير أفندى بتركيا .

على عباد الله[١] ، ويقول فى (ردع الفقراء) إن الاقتصار فى زمانه على شيخ واحد ، حجر على المريد ، ودفع لما يحتمل أن يصيبه من منافع ، لأن شيوخ عصره مقلدون ، لم يرتقوا إلى مراتب الكمل من أهل العصر السالف، ثم يحذر من ينهض بالمشيخة من أن يدركه الغضب، إذا عصى المريد أمره ، أو لم يذعن للتسليم بمشيخته ، وكرر هذا المعنى فى « آداب العبودية[٢] » ، وصرح فى « العهود المحمدية » بأن الشيخ الذى يغضبه انصراف مريديه عنه ، إلى غيره من الشيوخ ، محتاج إلى أن يسلك على يد شيخ آخر ، يرقى به إلى مرتبة الإخلاص[٣]

وبينا نراه يبيح للشيخ ، أن يعمل على إفساد المريد على شيخه[٤] ، إذبنا نلاحظ أنه يقول إن الصادقين من شيوخ الطريق ، لا يأخذون العهد على مريد ، نكث عهد شيخه[٥] ، بل كان من عادة الشعرانى ـ فيما يقول عن نفسه ـ ألا يربى مريداً ينتمى إلى غيره[٦]

وقد جرت هاتان الدعوتان المتضادتان فى كتبه جنبا إلى جنب . ! فلا سبيل إلى رد التناقض إلى اختلاف الزمان ، الذى صدرت فيه كل

---

(١) البحر المورود ص ١٦٠
(٢) ردع الفقراء ٢٣ وآداب العبودية ١٥
(٣) العهود المحمدية ١٢٩
(٤) البحر المورود ٢٩٥
(٥) بهجة النفوس ١٥٦
(٦) المناقب الكبرى ١٠١ ـ ٢

دعوة مهما ، ولعل مرجعها إلى الحـاجة إلى رسم الخطة الدقيقة ، التى تهيمن على تفـكير صاحبها ، أو عدم قدرة العقل على التزام مايقتضيه المنطق السليم ، والاندفاع إلى تأييد الدعوة ، فى ظروف وحالات نفسية تخالف ما أحاطه منها ، عند التعرض للدعوة الثانية ، ومثل هذا لا يحتاج إلى تفاوت عظيم فى الزمان ، وتـكفى فيه الفترة التى يقضيها فى تصنيف مؤلف له ، وربما قيل ـ مع توافر سـوء الظن به ـ إن الدعوة الأولى موجهة إلى مريديه ، مخافة أن ينصرفوا عنه ، والثانية موجهة إلى مريدى غيره ، إغراء لهم على التفـكير فى تغيير شيوخهم . . ! وهذا الافتراض مرهون بالتسليم بأن كتبه كانت تصـل إلى المجاورين فى غير زاويته

صلة دعوته بالمسيحية :

على أن موقف الشعرانى ـ وغيره من شيوخ التصوف الإسلامى ـ نقطة دقيقة لاينبغى أن نمر بها دون أن نقف عندها قليلا :

إنه يعتبر نفسه وسيطا بين الله ومريديه ، ويوفر لنفسه سلطة واسـعة النطاق ، وهذا شىء لايساير تعاليم الإسلام ـ فيما لاحظ المستشرقون أنفسهم ـ من أمثال كارادى ڤو[1] ـ عندما عرضوا لهذا الموقف عند صوفية الإسلام ـ

(١) مادة Wali فى دائرة المعارف الإسلامية .

وقد كتب فى نفى السلطة والوساطة عن الإسلام ، الكثيرون من أئمته ، ومن المحدثين الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى وعبد العزيز جاويش وفريد وجدى وغيرهم[١] ، وذهب البعض إلى أن شيوخ الطريق قد استعاروا سلطة الرؤساء من المسيحية ، فقد جاء فى إنجيل متى ١٦ : ١٩ « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات » وتأكد هذا فى نفس الإنجيل ١٨:١٨ « الحق أقول لكم ، كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء » وإن كان الكثيرون من المسيحيين اليوم ، لا يذعنون لتفسير مثل هذه الآيات ، على النحو الذى ذكرناه ، وينازعون فى تسليم المسيحية بسلطة الرؤساء ، ولكن المظنون أن بعض العبادات فى المسيحية ، يتمثل فيها القسيس وسيطا حتى ليفسدها غيابه عنها ، وبهذا يبدو كأنه وكيل عن الله فى أرضه . وقد كاد شيوخ الصوفية فى الإسلام أن يكونوا كذلك ، وقد رأينا كيف شبه الشعرانى إشراك المريد بشيخه ، بإشراك

---

(١) بالترتيب : الإسلام والرد على منتقديه ٨٧ والإسلام والنصرانية ٥٦ و ١١٨ و ١٣٦ وطبائع الاستبداد ١٧ (وفيه يرى أن المسلمين استعاروا سلطة الرؤساء من المسيحيين) ـ والإسلام دين الفطرة ٥٤ وغيرها ، وله أيضا القرآن وتحرير الفكر البشرى ، وللمؤلف الأخير : المدنية والإسلام ٥٧ وغيرها .

الرجل بإلهه . . . ! وأوجب على المريد أن يعترف بمعاصيه وخطاياه لدى شيخه ، وهـذا هو نفسـه « الاعتراف » كما يبدو عنـد بعض الطوائف المسـيحية

على أننا لا نعرف كيف اتصل الشعرانى بالمسيحية وتقاليدها ، وإن كنا قد لاحظنا أنه يتحـدث عن الرهبان والـكنائس وزهدهم فى مطالب الدنيا ، وربما استعار هذه النزعة من كتب غيره من صوفية الإسلام ، الذين اتصلوا بالتقاليد المسيحية كالغزالى ، الذى يقال إنه أول من حاول مزج تعاليم الديانتين ، مزجا مقصوداً منظما قائما على النظر الفلسفى ، منذ مر ببيت المقدس ، واتصل بالمسيحية فى مهدها ، وواجه تقاليدها[1] ، وربمـا اهتدى الشـعرانى إلى هذه النزعة وحده، من غير أن يأخذها عن سابق أو معاصر ، فإن التمـادى فى طلب الزهد ، والعيش شيخا على مريدين ، ونحو هـذا من مظاهر الجو الذى كان الشعرانى يحيا فيه ، كفيل بأن يهدى إلى مواطن هذه النزعة.

على أن إلزام المريد بالإسراف فى حب شيخه ، والتفانى فى طاعته ، وإن حطم شخصيته ، ولَاشَى إرادته ، فإنه يغريه من غير شك بالاقتداء بشيخه فى حب الله ، والاستجابة لأوامره ونواهيه . ومن هنا أفادت المحبة فى تحقيق السلوك الصادق .

---

(١) انظر التصوف عنـد العرب ص ٥٥ ـ ٦ والأستاذ ماسينيون Massignon, les Evangiles Selon Al Ghazali

الفَصلُ الرّابعُ

الشعرانى مع حكام مصر

غطرستهم على الشعب وذلتهم أمام الصوفية :

فسد عصر السلاطين فى أواخره، وعظم الخطب على الناس واشتد بأسهم، من فرط ما نالهم من ضروب الظلم والفاقـة ، فجنحوا إلى استقبال الحـكم التركى ، والأمل يشيع فيهم طولا وعرضا ، وسرعان ما أدركوا منـذ وطئت أقدام الترك أرض مصر ، أن الحـكم الجديد يربى سـوءاً على القديم الذى أنقض ظهورهم ، إذ استبيحت فيه الحرمات ، وديست الحقوق والحريات ، واستهان الجنود بنفوس النـاس وأموالهم وأعراضهم ، حتى كانوا يخطفون النساء والغلمان من الشوارع ، واقتحمت المتاجر ، وفرضت على الفلاحين الأتاوات من غير مبرر ، والمصرى يذعن على كره منه لهذا العبث الغليظ ...

ولـكن جبروت هؤلاء المتغطرسـين على أفراد الشعب ، كان كثيراً

ما يذوب و ينحل أمام شيوخ الطريق ، إذ كانوا يعيشون فى جو تسوده الجهالة ، و يملأه الجزع من خفى المؤامرات والدسائس ، ومن شأن هذا القلق أن يدفع أصحابه إلى التماس الطمأنينة وراء الدنيا التى يعيشون فيها ، فيحملهم على الإيمان بالله والزلفى إلى المقربين من أوليائه .

وقد كان هذا فوق ماعرف عن الأتراك من ميل إلى الدروشة ، و إيمان بصدق الولاية عند أهلها ، وقد هيأتهم لهذا عقلية المحارب الذى يحمل رأسه على كفه أنى ذهب ، ولا يجد من وقته متسعا لتثقيف نفسه وتنمية مداركه ـ إن نازعته النفس إلى ذلك ـ ومن قضى حياته وسط صليل السيوف ودوى الرصاص ، فزع إلى حياة الأمن والطمأنينة وراء دنياه ، وركن إلى كل من استطاع أن يشبع تصوراته ، و يسلمه إلى جنات خياله ....! ومن هنا بدت المفارقات الطريفة بين غطرستهم على الشعب ، وذلتهم أمام أرباب الطريق ، إذ هالهم ماشاع عن هؤلاء من قدرة على إتيان الكرامات وخوارق العادات ، والتصرف فى مصائر الناس وأقدارهم نفعا وضررا !

استخفاف الشعرانى بالحكام

وقد أشرنا من قبل إلى موقف الشعرانى منهم ، منذ بدء حياته فى مجال الطريق ، وكيف كان يأبى أن يقبل ما يقدمونه إليه من المال والهدايا ،

حتى إذا ألحوا ولجوا فى الطلب ، تقبل المال بيده ، وطوح به على مرأى منهم ومشهد من الناس .. ! وقد رفض أن يلتمس له بعضهم معونة السلطان فى تركيا ، وتعاظم ــ فى صدر شبابه على الأقل ــ على هؤلاء الجبابرة . ومن شواهد هذا أنه لما اعتزم الوزير الأعظم على باشا الرحيل إلى تركيا ، فقال للشعرانى : إننا مقربون إلى السلطان ، فهل لك حاجة عنده . . ! فأجابه الشعرانى على الفور قائلا له : ألك حاجة عند الله . . ؟ اننا مقربون إلى حضرته .. ! فسكت الوزير ولم يحر جوابا[1]

اعتقاد الحـــــكام فى ولايته :

وقد استطارت سمعة الشــعرانى فى قدرته على إيذاء المنـكرين عليه والشاكين فى صدق ولايته ، وتحقق هؤلاء الجبابرة من صحة ما تسامعوا به ، فقد غضب أحد نواب السلطان على ناظر النظار ــ فيما يقول صاحب المناقب ــ وإن كنا قد علمنا بأن هذه الوظيفة لا وجود لها فى هذا العصر ــ وأضمر له السوء ، فاختفى الناظر اتقاء لشره ، فاتصل به الشعرانى ليعلمه الأدب والطاعة مع أولى الأمر منه ، فوشى به عند الباشا أحد حساده ، وأوهمه بأن الشعرانى يتآمر على عزله ، وتولية خصمه مكانه ، وأذعن الباشا لمــا سمع ، وأخذ يهدد

---

(١) المناقب ١٣١ ــ ٢

ويتوعد ، وإذ به يتلقى أمرا من السلطان بالرحيل عن مصر على عجل . . . ! فأشار عليه بعض جلسائه بأن يترضى الشعرانى ، ويستغفره عما ارتكب فى حقه من معصية ، فامتثل مشورته ، وإذابه يتلقى من السلطان أمرا بالعفو عنه وإبقائه فى مصر . ! فامتلأ ايمانا بالشعرانى وقدرته على الإيذاء ، حتى كان الشعرانى إذا زاره ، خف لاستقباله وأكرم وفادته ، وأجلسه على مقعد مكسو بالجوخ ، وجلس على كثب منه على مقعد متواضع ، وأنصت لشفاعاته ، وبادر إلى قبولها من غير تردد[1]

وربما قيل فى تفسير هذه الحادثة ، ان صدور الأوامر بعزل الموظفين كباراً وصغاراً ، والتسرع فى إلغاء هذه الأوامر بإصدار ما يناقضها ، كان ظاهرة مألوفة فى هذه الأيام ، التى كان الاتصال بالسلطان فيها حقاً مشتركا للسلطات الثلاث : الوالى وضباط الجنود وأمراء المماليك ، مما أشاع ظاهرة الدس والاغتياب والتآمر ، وقد تهيئ المصادفات ما يغرى برد هذه التصرفات إلى أولياء الله . . ! ولكن الذى يعنينا من رواية هذه الحادثة وأمثالها مما أشيع عن الشعرانى ، شيوع الحديث عنها ، واختلاق ما قد يكبرها فى وهم الناس ، وأثر هذا فى موقف الأمراء ومن إليهم من الحكام .

وقد أسلفنا الإشارة إلى موقف القاضى محيي الدين الأرزيكى ، حين

---

(١) المصدر السالف ١٣٢

شاد مسجد الشـعرانى ، وما أصاب الأمير الذى هَم باغتصاب الأرض التى أقيم المسـجد فوقها ، وموقف حسن بك الصنجق من حب الشعرانى حبا أفسـد عليه حياته ، ودفعه إلى التجرد عن أملاكه ، والانقطاع لخدمـة المريدين فى زاوية شيخه .. ! وغير هذا مما يدخل فى هذا الباب ..

بل كان الأمراء يلتمسون عنده أن يوصى بهم خيراً ! كتب مرة يوصى أصحاب النوبة بنواحى العجم والروم ، بالأمير جانم الحمزاوى ، وقد استدعى إلى استامبول ، وأخذ الأمير وصيته وطواها فى رأسه .. ! ويتواضع الشعرانى فيقول إن هذا كان سوء أدب منه ، فأرسل الشيخ محيسن البرلسى المدون على كتب من الإمام الشـافعى ، ينبهه إلى سوء ما فعل ، ويقول له « الناس فى عينك كالقش ، ما بقى أحد فى البلد له شوارب إلا أنت ، تكاتب أصحاب النوبة بغير إذن من أصحاب البلدة ! ويعقب الشعرانى على هذا قائلا ، إنه اسـتغفر ربه من سوء ما فعل[1] .. ! والشيخ محيسن السالف الذكر ، مات سنة نيف وأربعين وتسعمائة للهجرة ، أى أن الشعرانى كان فى مطلع كهولته ، ومع هذا تهيأ له هذا النفوذ كله .

---

(٢) الطبقات الـكبرى ج ٢ ص ١٢٤ والـكهولة تـكون بعد الثلاثين ، وقيل ببلوغ الأربعين .

موقف الدولة العثمانية من شيوخ الطريق :

بل إن الدولة العثمانية نفسها ، كانت تخشى بأس الشعرانى ومن إليه ، من أصحاب النفوذ الروحى من صوفية هذا العصر ، فقد كانت الإشاعة تقول إن الجنود قد رغبوا فى أواخر عصر المماليك فى خلع « الغورى » ، من فرط ضيقهم ، بظلمه ، فذهبوا إلى جلال الدين البكرى ، وأرادوا أن يقيموه خليفة على المسلمين فى مصر ، لأن جده ـ الصديق كان خليفة عليهم من قبل . !
وروى النابلسى أن السلطان سليم حين غزا مصر ، دخلها و « جلال الدين البكرى » آخذ بزمامه ، و « أبو السعود الجارحى » عن يمينه ، و « الدشطوطى » عن يساره ، وقيل إنهم هم الذين جاءوا به من الشام ، وأدخلوه مصر وهم مشاة فى ركابه[1] ، وربما أثارت هذه الإشاعات قلق الدولة العثمانية ، حتى خشيت على سلطانها فى مصر ، من نفوذ هؤلاء الأولياء .. ! واضطرت إلى إصدار قانون تعلن فيه بأن من تظاهر بصفات الملوك ، وعارض أركان الدولة فيما يفعلون ، كان مصيره السجن أو النفى أو الإعدام[2] .. ! وقد أشار الشعرانى إلى هذا القانون ، والجزع منه لا يخفى فى حديثه عنه .. ! ولعل فرط جزعه من هذا القانون ، هو الذى دفعه إلى الإسراف فى الدعوة لطاعة الحكام ،

---

(١) رحلة النابلسى ١٣١ (٢) البحر المورود ٣٢٨

امتثال أوامرهم وعدم التعرض لمناوأتهم ، ولو كانت أعمالهم ظلماً صارخاً ـ كما سنعرف عند الحديث على موقفه من الحياة السياسية .

حسن علاقاته بالحكام

و إذا كان من الحق أن يقال إن هؤلاء الجبابرة ، قد دانوا بطاعة شيوخ الطريق ، حباً لهم و إيماناً بولايتهم، وخشية من قدرتهم على إيقاع الأذى بهم، فمن الحق كذلك أن يقال إن مردّ هذه الظاهرة ـ فى بعض الأحيان على الأقل ـ إلى استغلال نفوذهم فى تحسين سمعتهم عن عامة الناس ، والاستعانة بهم على إيقاع الظلم بالشعب ، مع الاطمئنان إلى نتائج تصرفاتهم ! وربما أمكننا أن نعزو إلى هذه العلة ، بعض ما كان يقدم هؤلاء الحكام لشيوخ الطريق من عطايا ، وما يحبسونه على زواياهم من أوقاف ، فوق الحرص على الاستجابة لشفاعاتهم ، وتحقيق كل مطالبهم . وقد كان من أولى واجباتهم فى مصر ، جمع الضرائب ، وليس العمل على إصلاح البلد وترقية شعبه ، ومع ذلك كانوا يعفون أملاك الصوفية من هذه الضرائب ، وقد فاخر الشعرانى بأن أوقاف زاويته بمأمن من ظلمة الحكام ، فلا يعارضه أو يتعرض له أحد منهم ، رغم أنه لا يحمل مرسوماً من السلطان بهذا الأمان(١) » !

(١) لطائف المنن ج ١ ص ١٨ و ٦٢ وعلى مبارك ج ١٤ ص ١١٠ والمناقب ١٠٧

وفى ولاية على باشا الوزير ، سنة نيف وخمسين وتسعمائة ، اكتشف أولو الأمر ، فساد الوقف الذى حُبس على زاويته وذريته ، ولكن سرعان ما أرسل السلطان بعدم التعرض له ، وطلب الدعاء منه ، فى مجالس ذكر وأوقات عبادته[1]

وقد تعرض بعض الظلمة لذريته بعد وفاته ، فثارت ذكراه فى مثواه حتى تسامع السلطان فى تركيا بأنباء هذا العدوان ، رغم أن أحداً من ذريته لم يرفع إليه شكواه . ! فأرسل بكف العدوان عنهم ، وهدد من ركب رأسه فى مناوأتهم ، باعتباره طريد القانون ، وأنذر بإهدار دمه جزاء عناده . !

وقد كان الشعرانى يفاخر بأنه لا يجرى على نهج غيره من شيوخ الطريق فى التماس الرزق أو العون من السلطان فى الآستانة ، إذ جرى نواب مصر وقضاتها وكشافها وعمالها ومحتسبوها ومشايخ العرب فيها ، على تهيب الاعتداء على أملاكه ، والامتناع عن أخذ ضريبة عنها ، تقديراً له وإكباراً لولايته[2]

وقد أثر موقفهم فى الشعرانى ، حتى وضع للفقراء آداباً ، ألزمهم باتباعها عند ما يخف لزيارتهم هؤلاء الحكام ، فأوجب حسن استقبالهم ، بالغاً ما بلغ التحقق من ظلمهم ، لأنهم نواب الله فى أرضه ، يسلطهم على الآثمين من عباده ، جزاء ما قدموا من مَعَاصٍ وذنوب . إلى آخر ما سنعرف بالتفصيل عند ما نعرض موقفه من الحياة السياسية

---

(١) على مبارك ج ١٤ ص ١١٢ — ١١٣ (٢) المناقب ١٠٧ وقارن ص ٩٦

شفاعاته عند الحكام :

وإذا كان حسن العلاقات بينه وبين هؤلاء الطغاة ، قد مكن لنفوذهم بين الناس ، وردّ عنهم تمرد الذين يضيقون بظلمهم ، فما من شك فى أنه هيأ للناس وجوها من الخير ما كانوا يصيبونها لو ساءت العلاقات بينه وبين حكامهم ، إذ كان هؤلاء قساة غلاظ الأكباد ـ على ما عرفنا ـ فكانت رحمة من الله أن يقيض للأمة أمثال الشعرانى ، ممن يشاركون المظلومين المعوزين آلامهم ، ويسفرون بالخير بينهم وبين هؤلاء الطغاة ؛ وقد كان الشعرانى يصرح بأنه مسئول عن كل ظلم يتسامع به ، ومطالب برد هذا الظلم قبل أن يسأل عنه يوم الحساب[1] ..! إن مثله الأعلى هو « القطب » الذى كان يحمل عن كافة البشر ، كل ما يعانون من متاعب وآلام ، ويليه « الولى » الذى يحتمل عن أهل دائرته ، ما ينزل بهم من ضروب العذاب[2] ، والشعرانى يفاخر بأنه يشعر بشعور المعذبين فى منطقته ، حتى ليحس إذا نزلت آلام الوضع بامرأة ، أنه يوشك أن يضع فى ولادة عسيرة شاقة ، ينوء بآلامها حتى تلد المرأة ويزايلها عناؤها . . ! ومن أجل هذا كان يؤثر ألا يحضر قتل إنسان أو ضربه أو معاقبته ظلما ، وألا يرى « من شنقه الولاة أو شنكلوه أو خوزقوه ، أو وسطوه أو خزموه فى أنفه ، أو سمروا أذنه فى حائط ، أو جرسوه على ثور أو شحطوه فى أذناب الخيل ، أو ضربوه فى قطع الخليج . ! »

(١) العهود المحمدية ٣٤٩ ـ ٣٥٠ (٢) المصدر السالف ج ٢ ص ١٨٣ ـ ١٨٤

ومن هنا كثرت شفاعاته عند الحكام، لرفع الظلم ورد العدوان، واستعمال الرفق حتى مع الآثمين .

وقد كان هؤلاء الطغاة يسلبون الناس أموالهم ظلماً وعدواناً ، ثم يتبرعون بالكثير منه لشيوخ الطريق طواعية واختياراً ! وقد كان الشعرانى أول أمره يعرض عن قبول هداياهم ، ويتحرّى الابتعاد عنهم ، ثم عاد إلى التلطف معهم ، وتوثيق العلاقات بهم ، وقبول ما يقدمونه إليه من هدايا وأوقاف ، واستخدام الكثير منه فى وجوه البر فى زاويته وخارجها ، فلعله رأى أن قبول هذه العطايا ، ليس إلا رداً لمال مسلوب ، يعود إلى أصحابه أو أقرانهم .. وسواء أصح هذا التفسير أم أخطأ ، فإن خدمات الشعرانى لأهل عصره ، خليقة بكل تقدير ، لأنها جاءت فى عصر افتقد فيه الشعب العدالة فى الأرض ، والتمس العون عند الشعرانى وأمثاله ، ممن تمثلت فيهم الزعامة فى شتى صورها ، فلو ترددوا فى الاستجابة لمطلبه ، والتصدى للذود عن حقوقه ، لكان خطبه شديداً ثقيلا .

الباب الثالث

آراء الشعرانى

عرضنا فى الباب الأول شيئاً عن سيرة حياته ، من خلال التجارب الروحية التى عاشها عالماً وصوفيًّا ، وتتبعنا فى الباب الثانى علاقاته بمعاصريه ، من علماء الدين وشيوخ الطريق والمريدين والحكام ، ونريد أن نتتبع فى هذا الباب آراءه المنثورة فى شتى كتبه ، وأن نعقب عليها ببيان مسلكه إزاءها، لتتبين من هذا موقفه من الحياة فى شتى صورها .

فلنعرض موقفه من الحياة العلمية والعقلية والسياسية والعملية والأخلاقية جميعاً ، لنعرف مدى تأثيره فى روح عصره، ومبلغ تأثره بالجو الذى عاش فيه ، عسى أن يمكّننا هذا من التعقيب الخاطف بتقويم شخصيته

الفَصْلُ الأَوّل

آراؤه في الحياة العلمية والعقلية

موقفه من العلم اللدنى

حرص الشعرانى على إنكار التصوف مع الجهل، وتوخَّى الدعوة للعلم فى شتى آثاره، كما عرفنا من قبل، وروى عن « الغزالى » أنه أنكر علم الظاهر فى بدء دخوله الطريق، ثم عدل عن موقفه، وصرح بأن العلم مع الإخلاص نور يكشف الحجب[1]، وقد كان « الشافعى يرى أن طلب العلم على وجه الإخلاص، أفضل من صلاة النافلة، ومن أجل هذا خصص لنومه ثلث الليل، ولمطالعة الحديث واستنباط الأحكام ثلثه الثانى، وللتهجد ثلثه الباقى، وأكبر من مذاكرة الإخوان فى العلم والتهجد بالليل؛ حتى اعتبرها مصدر حبه للبقاء فى هذه الدار الفانية[2] إلى آخر ما ورد فى مصنفات الشعرانى من إكبار للعلم؛ وتبشير بالإقبال عليه.

---

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٥١ (٢) العهود المحمدية ص ١١

ومع هـذه الدعوة ، يحرص الشعرانى فى الـكثير من مؤلفاته ، على الترويج لدعوة أخرى ، يبشر فيها بطلب العـلم اللدنى ، الذى قد يتيسر للواصلين من أهل التصوف ، فهو يقسم العلم إلى ثلاث : أولها ـ علم العقل ، وهو الذى يجيء بعد تأمل ونظر واطلاع ، وثانيها ـ علم الأحوال ، ويجيء عن طريق « الذوق » الصوفى ، ويليه علم الأسرار ـ ويكون وليد الإلهـام . ولما كان الإلهـام من شأن الأولياء والأنبياء ، فقد تعرض صاحب هـذا النوع من العلم لإنكار الناس ، لأن صياغته فى عبارة ، تبعده عن الأذهان ، وتفسده أمام أهل التعصب (١)

ولا يكمل الرجل فى مقام العلم عند أهل الطريق ، حتى يصل إلى هذا العلم اللدنى ، الذى يكون عن الله رأساً ، من غير وساطة من نقل أو شيخ ، ومن تولى المشيخة عن اطلاع على كلام الفقهاء والصوفيـة ، فقد أخطأ وضل سبيلا ، لأن من لا يكون كتابه قلبه ، لا يصلح للطريق أبدا .

الطريق إلى العـلم اللـدنى :

أما السبيل إلى إدراك هذا العلم ، فسلوك الطريق على يد شيخ صادق ، والتزام ما يقتضيه هذا السلوك من آداب ـ بالغاً ما بلغ إرهاقها للنفس ، وآية

---

(١) اليواقيت ج ١ ص ١٩

الشيخ الصادق أنه إذا لقن مريده الذكر ، أفرغ فيه العلوم الشرعية حتى لايحتاج بعدها إلى نظر فى كتاب ، فإن أدخله الخلوة أفرغ فيه العلوم اللدنية ، حتى ليدخل الخلوة جاهلا ، ويخرج عالما لا يكاد يخفى عليه شىء من وجوه العلم[1] ، فوق ما يؤتيه الله من قدرة على محاجة أهل الشريعة ، وتفنيد ما يعتزون به من أدلة . وهذا العلم اللدنى ، أسمى ما يصل إليه الفقير فى مراتب الترقى فى المقامات ، وقد صدق البسطامى حين قال لعلماء عصره أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت . وميزة هذا العلم على غيره ، أنه يكمل ذات صاحبه ، وينتقل معه إلى أخراه . !

موازنة بين العلم الظاهر والعلم الباطن :

والشعرانى حريص على إيثار هذا العلم على علم الظاهر ، لأن هذا نطلبه لوجه الحاجة إليه فى دنيانا الحاضرة ، ومن هنا وجب على الفقير ألا يطيل النظر إليه ، وفى وسعه أن يحيط علما بكافة ما يحتاج إلى الإلمام به من أحكام الشريعة فى نحو شهر ! ! ولهذا أخطأ الفقهاء فى قضاء عمرهم ، فى دراسة الأحكام التى استنبطها البعض من كلام غيره من حملة الشريعة ، وهذا

(١) الجوهر المصون ٣ ــ ٤ و ٧ و ١٠ و ١٧ و ٣٩ ودرر الغواص ٧٢ ــ ٣ وقواعد الصوفية ٣٠ والجواهر والدرر ١٠٩ . الخ

أمر لم يكلف الله أحـداً به ، لأن قائله غير منزه عن الخطأ ، إلا إن أجمع العلماء على صحة ما يقول[1] ، أما العلم اللدنى ، فإنه لاغنى عنه لإنسان ما ، وليس له حد يقف الإنسان عنده إذا بلغه ، وينحصر فى نوعين من العلم ، هما العلم بالله والعلم بمواطن الآخرة ، لأن الجهـل قد يؤدى إلى إنكار ما يراه الإنسان من تجليات ، حتى يقول الجاهل للحق إذا تجلى له : أعوذ بالله منك ! والعلم بهما يهيئ الإنسان لـكل موطن ، أما سبيل إدراكهما والظفر من نورهما بأوفى نصيب ، فالخلوة والرياضة والمشاهدة والجذب الإلهى[2]

علاقة الأمية بالعلم اللدنى:

بل إن المتتبع لآراء الشعرانى المنتثرة فى مصنفاته ، يلاحظ أنه لا يقنع بإيثار علم الباطن على علم الظاهر ، وإنما يعرض لمهاجمـة العلوم التى تجيئ اكتسابا بعد نظر واطلاع ، وهو فى هذا مساير لمنطقه ، وإن بدت ألفاظ الدعوتين على تناقض ملحوظ ، لأن العلم الصحيح ، إذا كان هبـة من الله لعبده عن غير وساطة ، فالأمية لا تعوق اكتسابه ، والجهل بالقراءة والـكتابة لا يحول دون الاتصال بالله ، واستقاء العلم من معينه ، وقد أخذ الشعرانى الطريق على رجل كان من أساطين التصوف فى عصره ـ إن لم يكن أكبرهم

---

(١) الجواهر والدرر ٢٧١ ـ ٢ (٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٥ وآداب العبودية ١٤ ـ ١٦ فى باب طلب العلم النافع

خطراً ـ هو « الخواص » ؛ وقد كان أمياً لايقرأ ولايكتب[١] ؛ وما كانت هذه الحادثة فذة فى تاريخ الفكر الصوفى ، فقد كان بعض أفذاذ الصوفية من أمثال نجم الدين الكرخى وأبى مدين المغربى ومحمد وفا أميين فيما يروى الشعرانى ، ولكن كلامهم فى الطريق قد أعجز العلماء وأثار دهشتهم .

بل لقد كان شيوخ الطريق ، يطلبون من مريديهم إذا اعتزموا أن يتصوفوا ، أن يزيلوا عن عقولهم كل ما يعلق بها من علوم الظاهر ! ومعنى هذا أن الأمى الذى لم يشتغل بهذه العلوم ، أقرب إلى الفتح الإلهى من الفقيه والمتكلم ، اللذين لايلتزمان العمل بما يعلمان ، وقد خلا الغزالى بنفسه ، وتجرد عن نظره وفكره ، ولبث مقيما على ذكر الله أربعين يوما ، عسى أن يصبح فى عداد الفقراء ، ولكنه أحس بأن قوة فقهية لاتزال عالقة به ، فأعاد الخلوة والذكر ثانية وثالثة ؛ وهو على حاله لا يذوق شيئاً من أحوال القوم ، فعلم من هذا أن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء والطهارة[٢] ! ويصرح الشعرانى بأن مدخل العلوم الإلهية فى القلب ، ذهاب جميع العلوم النقلية عنه ، فإذا صار فارغا من كافة النصوص الكونية ، تهيأ لنزول الواردات والعلوم الوهبية ، لأنها لاتنزل إلا فى الأوعية الفارغة المهيأة لقبولها ، وكما يقول المجنون فى ليلى :

---

(١) لطائف المنن ع ١ ص ١٥ و ٤٩ و ٣٠ والطبقات الكبرى ع ٢ ص ١٣٠ ودرر الغواص ص ٢ الخ . (٢) آداب العبودية ١٥

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خاليا فتمكنا[١]

مهاجمة العلم الظاهر

فكان من الطبيعى بعد هذا أن تهاجم العلوم المكتسبة ، وقد خصها الشعرانى بهذا الهجوم مبعثراً فى مؤلفاته التى زودها بالدعوة للعلم والتبحر فيه.! بل روى « بروكلمان » فى ثبت مؤلفاته ، كتابا بعنوان « الدر المنظوم فى زهد العلوم » ـ فى المكتبة الخالدية بالقدس نسخة منه ـ والعنوان ناطق بموقفه من العلم الظاهر

وحملاته على هذا العلم ، لا يكاد يخلو منها كتاب له ، لأن هذه العلوم الكسبية نفعها مرهون بدنيانا الحاضرة ، فعلم الطب مرهون بعالم الأسقام، والتداوى بذكر الله على موضع الألم يغنى عنه ....! وإذا فشل هذا العلاج دل فشله على ضعف العقيدة « وهذه مسألة تشهد بها التجربة . . » وقد ساق الشعرانى على صحتها كثرة من الأمثال .

أما علم الكيمياء فباطل لا محالة ، لأن أهله يلتمسون عن طريقه الظفر بما يشبه سلطة الأولياء على الكون وظواهره ، ومثل هذا أو ما يقرب منه

---

(١) الجواهر الكبرى ص ١ والمناقب الكبرى ٥٣

يمكن أن يقال فى السحر والكهانة والنجامة ونحوها[١] ؛ بل مضى إلى تحريم الفلسفة وعلومها[٢] ؛ وأعلن بأن العلم بالله واليوم الآخر يغنينا عن كافة ماعرف البشر من علوم وفنون[٣] ؛ والاطلاع على معانى الكتاب والسنة سبيله الإكثار من النوافل ، لأن من واظب عليها أحبه الله ، وأدناه من حضرته ، وأطلعه على أسرار شريعته ، لأن الإنسان يؤدى الفرائض مخافة العقاب ، أما النوافل فيقوم بها حباً فى الله ، لا خوفا من عقابه ولا طمعا فى ثوابه ، وأعظم النوافل التى تدنى الإنسان من ربه ، وتفضى به إلى الاطلاع على أسرار شريعته ، هى الإكثار من النكاح . . ! لما يترتب عليه من ازدواج وإنتاج ، وباب العرفان إنما يفتح لمن عمل بما قضى به ربه راضياً مختاراً[٤]

والتفاضل بين الناس لايقاس بالعلوم الظاهرة ، بل يكون بالرسالة والولاية ونحوها ، مما يجيء هبة من الله وحده[٥] ، ولا تنكشف الحجب لغير الفقراء ،

---

(١) العهود المحمدية ٣٧٥ وغيرها والبحر المورود ١٥٤ (وفيها يقول إن علم الكيمياء لا يكون على يد من أحب الدنيا) وقارن ص ٣٥٣ ـ ٤ ولطائف المنن ج ١ ص ٦١ عن فتح المطالب . الخ (٢) لطائف المنن ج ١ ص ١٣ و ٢٦٠

(٣) الجواهر والدرر ٢٧١ ـ ٢ (٤) لطائف المنن ج ١ ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٥) درر الغواص ٧٧ ـ ٧٩

وهم يشبهون المشرف على الممات ، لا يميل إلى الاستماع للحديث فى البيوع والدعاوى ونحوها ، فضلا عن الاشتغال بها ، وإذا قلت له إن الرسول يقول : ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين ، أشاح عنك بوجهه ، ورماك بفراغ القلب[1] ، وهل نقول للملكين إذا همّا بمحاسبتك فى قبرك ، وللزبانية يوم يحيطونك فى جهنم ، دعونى فإنى أحفظ أبواب المعاملات ، أو الفقه والنحو والأصول ، أو أقرأ بالمد والإمالة والتفخيم والترقيق .. ؟ إذ التقوى ومعرفة الله والكف عن أذى الناس ، هو الذى يقيك عذاب النار ، وحسب الإنسان أن يؤثر الأهم على المهم ، وأهل الحقيقة لا يجهلون ما يعرفه أهل الرسوم (الفقهاء) من علوم ، بل يعرفون الحساب والهندسة والرياضيات والمنطق والعلم الطبيعى وغيره ، ولكنهم يعرفونها من حيث هى دالة على الله وكماله[2] ، ومن العبث أن تطلب هذه العلوم لغير هذه الغاية ، وقد أدرك الشعرانى من شيوخ عصره نحو سبعين شيخا ، كان منهم أساطين التصوف فى أيامه ، كالمرصفى والشناوى وتاج الدين الذاكر ومحمد المنير وأبى السعود الجارحى وغيره ، فلم ير واحدا منهم يشغل نفسه ، بدراسة النحو أو تعلم الصرف ، ولم يسمع قط أن واحدا منهم قد أخذ هذه العلوم على أحد أهليها ، مع اتفاق العلماء وغيرهم على التسليم بعلمهم والاعتقاد فى ولايتهم وهم لم يؤثروا الانصراف عنها ،

---

(١) آداب العبودية ١٤ (٢) المصدر السالف ١٨

رغبة فى الهرب من صعوبة الاشتغال بهـا ، بل أملا فى ملء وقتهم بالتهجد والتعبد ومجاهدات النفس وذكر الله .. وذلك أشق وأصعب[١] . والاطلاع على كتب التوحيد وقراءة آثار الصوفية ، غير ميسور لجميع الناس ، وقد يُفضى العجز عن فهمها إلى إنكار تعاليمهـا ، ومن هنا كان الأفضـل قصرها على الـكُمّل من الصوفية والفقهاء[٢]

ويمضى الشعرانى فى هـذا التيار حتى يأتى على العلوم الـكسبية كلها ، لأن الاشتغال بها ، يصرف عن ذكر الله ، وتحرِّى إهمالها ، رغبة فى الانصراف إلى العبادة يزيل الحجب ، ويوصل إلى حضرة الله ، ويمكّن من استقاء العلم من معينه ، رأسا من غير وساطة !

مناقشة موقفه

وما من شك فى أن محاولة الجمع بين الدعوة لعلوم الظاهر ، والترويج لعلم الباطن ، قد أفضت به إلى التناقض الملحوظ فى الـكثير من كتبه ، فهو يوجب الجمع بين العلم والعمل ، ويعتبر الاشتغال بأحدهما نقصاً[٣] ، ويصرح بأن كل صوفى فقيه ولا عكس ، وأن التصدر فى طريق الله لا يكون إلا بعد التبحر فى شريعة الله

(١) البحر المورود ٣٥٣ ـ ٤ (٢) لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٢ ـ ٣ والبحر المورود ٢٧٤ (٣) العهود المحمدية ١١

ولغة العرب[١] الخ . ويجرى على هذا النحو فى سائر كتبه ، ولكنا نراه فى هذه الكتب نفسها يصرح بألا علم إلا ما كان عن كشف وشهود ، لا عن فكر ونظر وتخمين ، ويشبه الفقير فى موقفه إزاء العلم، بالمريض فى حال النزع ، لا يحتمل الاشتغال بالعلم الظاهر وإن حض عليه رسول الله ... وينتهى إلى أن يقول : ما رأينا مريدا بلغ مبالغ الرجال بمطالعة كتاب .. ! وأن التصوف لا يكون قط بحفظ النقول[٢] ، لأن من لم يكن كتابه قلبه لا يصلح فى الطريق بتاتا ، وانتهى إلى إيثار الأمية على العلم فى حال السلوك ، بل صرح بأن مدخل العلوم الإلٰهية فى القلب ، ذهاب جميع العلوم النقلية عنه، ولهذا أمره الخوّاص عند بدء سلوكه ببيع جميع كتبه ! ومع حثّه على طلب العلم الظاهر، يقرر بأن الإنسان لا يحتاج لغير العلم بالله واليوم الآخر ، وهذا ما لا يكتسبه بغير الخلوة والرياضة والمشاهدة والجذب الالٰهى ونحوه. ويقرر بأن التداوى باسم الله ، يغنى عن الطب ، ولكنه يقول إنه يلجأ إلى طبيب مسلم متى أدركه مرض ، وأنه لا يترك التداوى كما يفعل أصحاب «الأنفس الغَوِيّة»، ويقول إن طلب العلم لا ينبغى أن يكون بقصد دنيوى ، ومع هذا يوجب على المسلم تعلم رمى النشاب ، والمضاربة بالسيف والرمح، ليكون مستعدا لرد العدو عن نفسه وماله وأولاده ، والمسلمين أنى كان . ولا ندرى ما علاقة هذا بالعلم بالله

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٤ (٢) الطبقات الوسطى ص ٢٠٤

واليوم الآخر . . ! وإن كان قد عقب بما يفيد هذا الاتصال المباشر(١)

بل لا ندرى كيف تتمشى هذه الدعوة مع تبشيره بالصبر على المكاره واحتمال الأذى ، ومحبة الأعداء من الأشرار مع كراهية الشر ... إلى آخر ما سنعرفه عنه عند الحديث عن آرائه فى الحياة الأخلاقية .. ويطول بنا الحديث إن حرصنا على تعداد وجوه التناقض فى كتبه ، مع ملاحظة أنها تجرى معا فى الكتاب الواحد والزمن الواحد .. !!

وإسرافه فى إهمال علوم الظاهر ، مردّه إلى إسرافه فى الاستخفاف بالدنيا ، وإمعانه فى الحرص على الأخرى ، فإن الدنيا متى كانت جسرا يعبر عليه الإنسان إلى أخراه ، هانت فى نظره مباهج الحياة ومهيئات كمالها معا وهذا التفريط ـ فيما يبدو لنا ـ شطط لا يقره الإسلام ، الذى جمع بين الدنيا والآخرة فى سمط واحد

وحديث الشعرانى عن الآخرة ، يشبه حديث رجل الدين القح ، من حيث اعتبار العمل لها غاية كل حى ، ولكنه بطّن حديثه عنها بروح صوفى يتجلى بين الحين والحين ، فى الإكثار من الكلام على حب الله

---

(١) العهود المحمدية ١٠٧

تأثره بالغزالى

ويستشهد الشعرانى بالغزالى ، عند ما يقرر بأن العلم الظاهر يعوق العلم اللدنى ، والواقع أن الغزالى قد أكد هـذا الاتجاه الذى يجعـل الإيمان ـ لا التفلسف ـ طريقا إلى الله .. ! وقد أشرنا من قبل إلى انتصاره للأشاعرة ، فى حملتهم على الفلاسفة والمعتزلة ، ومهاجمة النظريات الفلسفية ، التى انتهى إليها أهل التصوف فى تفسير الوجود والمعرفة ، وحملته فى «المنقذ من الضلال» على علماء الكلام والفلاسفة ، لا تحتاج إلى تعليق ، وإذا كان قد قرر قيام الحدس والفيض والإلهام ، أداة لإدراك العالم الباطن ، فقد صرح مرارا بأن هـذا لا يجيء باتحاد أو حلول أو نحوه ، بل يكون بعد طاعة الله وعبادته وزهد فى الدنيا وتربية النفس ... فإن على القلب غشاوة من شهوات الجسم ومشاغل الدنيا ، تنقشع بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله ، حتى يرتفع حجاب الحس المرسل بين القلب واللوح المحفوظ ، والقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله ، « وميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون ، والبحث عن الأقاويل والأدلة» وقد انكشفت الحجب للأنبياء والأولياء « لا بالتعلم والدراسة » بل « بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفريـغ القلب من شواغلها ... » والواصلون

إلى مرتبة العلم اللدنى ، فى غنى عن مشقة التحصيل وتعب التعلم ، وهـذه الطريق ـ طريق الصوفيـة ـ درجة مختصرة من النبوة ، لا تقع بالتعلم بل بالذوق وحـده ، فهى ترجع إلى تطهير محض وتصفية واستعداد وانتظار إلى آخر ما يقوله فى الكثير من كتبه[١]

ومن هـذا نرى أن الاتجاه الذى اندفع إليه الشعرانى ، فى إيثار الأمية على العلم الظاهر عند التهيؤ للعلم اللدنى ، هذا الاتجاه الذى تأدى منه إلى مهاجمة العلوم المكتسبة ـ على ما عرفنـا ـ مرده ـ على وجه أخص ـ إلى موقف الغزالى من التفلسف والإيمان ، وإيثار الثانى على الأول طريقا إلى الله .

وقد تهيأ للشعرانى نفوذ واسع النطاق على أهل عصره ، وتكفل انتشار كتبه بعده ، بإذاعة آرائه بين آلاف القراء ، فماذا كان أثرها فى الحركة العلمية فى مصر .. ؟ حسبنا أن نثير الآن هذه الفكرة فسنعود إلى مناقشتها بعد .

موقفه من التثقف بالاختلاط

ولكن إذا كان هذا موقفه من تنمية العقل ، عن طريق الاطلاع والتبحر فى تفهم العلم القائم فى أيامه ، فما موقفه من تثقيف العقل بعشرة الناس وخلطة أهل العلم منهم ؟ إن من خصائص التصوف الانقطاع للتهجد والتجرد

(١) عالجنا هذا فى كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » وفيه نصوص تؤيد ما نقول.

للذكر ، وهذا يقتضى تجنب الاختلاط بالناس ، اتقاءً لضياع الوقت فى غير ما يدنى إلى الله ، ومن هنا جاء إيثار الصوفية للعزلة ، والحرص على دخول الخلوة والنظر إلى عشرة الناس باعتبارها ملهاةً عن الله ، ومشغلةً عن ذكره ، ومن دعا منهم للاختلاط بالغير قيّد دعوته بشرط الأمان من شره[١] كما يقول الشعرانى ، وإن كانت عشرة الكُمَّل من العارفين مباحة لمن يحسن الفهم ، وإلا كانت الخلوة أتمّ وأكمل[٢] ، وقد سئل رسول الله عن أفضل الناس ، فقال : رجل يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله ، ثم رجل يعتزل الناس فى بقعة من بقاع الأرض ، متفرغا لعبادة ربه[٣]

موقفه من حرية النظر العقلى :

ويبدو الصوفية أحرار الفكر فى مجال يسمون فيه على علماء الرسوم ، هو تأويل الكتاب وعدم الوقوف عند حرفية نصوصه ، ولكن الشعرانى يحرم على مريديه التفكير ، وإطالة النظر رغبةً فى الفهم ، إذ ينبغى – فيما يرى – أن نتأدب مع الله ولا نتكلم إلا فيما نعلم ، فنؤمن بالمتشابه من كلامه ، ولا نخوض فيه من غير تحقيق ، ولا نتجاوز ظاهر الكتاب والسنة ، وما التبس علينا فهمه وكلْنَا علمه إلى الله ، فقبولنا لصفاته تعالى كما يرويها عن نفسه

---

(١) العهود المحمدية ٢٠٤ – ٥ (٢) الجواهر والدرر ٢٨٢

(٣) الوصية المتبولية ١٣

أولى من إذعاننا لما تتصوره عقولنا الضعيفة ، ومن آثر حكم العقل على حكم الله ، كان فى ضلال مبين[١] ، وليكن التأويل حقا مقصورا على من فنى عن بشريته من العارفين ، فأطلعه الله على أسراره ، من غير نظر وتأمل ، وعلى هذا يصبح المذموم من التأويل ما جاء اكتسابا وليس فتحا إلهيا . ومن هنا وجب على الفقهاء ، أن يقفوا عند ظاهر الشرع ، لا يزيدون عليه حكما واحداً ، ولا يتجاوزون بتأويلهم ماحرمه الحق ، أو ما أباحه أو ما أحله أو ماأوجبه[٢]

وقد ورد — فيما يروى الشعرانى — عن ابن عربى أن من فسر القرآن برأيه فقد كفر[٣] ، وأكثر المؤولين هالكون ، ومن أوّل فقد جرح إيمانه[٤] وقد صرح الشارع بأمور وسكت عن أخرى ، فالأحرى تجنب القياس أدبا مع رسول الله ، وجرياً على نهج الصحابة والتابعين فى ذلك ! وقد عاب جعفر الصادق وغيره على أبى حنيفة إكثاره من القياس ، لأن أول من قاس إبليس ، ولكن الكُمَّل من أهل الحقيقة يستغنون عن هذا القياس بالكشف[٥] ، ويستبدلون بالفكر والاستنباط ونحوه ، استقاء العلم اليقينى الصحيح عن واهب العلوم . بل صرح الشعرانى ، بأن العلم قد بلغ غايته

(١) آداب العبودية ١١ — ١٢ (٢) الجواهر والدرر ١٣٤ — ١٣٦

(٣) اليواقيت ج١ ص ٢٤

(٤) المصدر السالف ٩٥ وقد شرح رأى ابن عربى من ص ٩٤ — ٩٧

(٥) الميزان ج ١ ص ١٦

عند زحف الترك إلى مصر (٩٢٣ هـ[١]) ، وحسب الأجيال التى تلت هذا التاريخ ، فهم ما قاله المتقدمون ، من غير استفسار عن علل الأحكام ، أو الفرق بين بعضها والبعض الآخر ! والعمل عن غير فهم أحق وأرفع فى مراتب الإيمان ، من العمل بعد الفهم . . ! لأن العمل لا يشرف إذا كان مقصده إدراك علته ، بل يسمو متى كان مجرد طاعة لله واستغراق فى حبه[٢] إلى آخر ما يقرره الشعرانى .

دعوته فى الميزان :

ومن هذا نرى أن الشعرانى قد أطفأ وقدة الحماسة فى طلب العلم ، والاطلاع على كتبه ، ولم يشجع على خلطة الناس ، وعشرة الأخيار منهم ، وقيَّد طلاقة العقل فى تأويل النصوص المقدسة ، و إباحة التأويل لأهل الحقيقة لا تتنافى مع هذا التقييد ، لأن تأويلهم مرده إلى الكشف، لا إلى التفكير والنظر العقلى . ولكنه مع هذا كان « ينهى عن الحط على الفلاسفة » والطعن فى علمهم ، وينفّر ممن يعرض لذمهم ، ويقول إنهم عقلاء[٣] ولا ينبغى أن يقال إن هذا مردّه إلى حرصه على مداراتهم ، جرياً على سنته فى مداراة الطوائف كلها ، فإن عصره كان خلواً من الفلاسفة .

---

(١) آداب العبودية ١٤ (٢) قارن الجواهر والدرر ٣١٤ و ٢٧٧

(٣) طبقات المناوى الكبرى ج ٢ ص ٤٩٥ وتكميل النور السافر ٦٦٠ وشذرات الذهب ج ٨ ص ٣٧٢

على أننا ـ رغم هـذا ـ نرى أن الحركة الصوفية فى العالم الإسلامى ، قد خففت بعض التخفيف من شر الشلل الذى أصاب الحيـاة العقلية ، بعد انتصار أهل السنة على المشتغلين بالفلسفة والنظر العقلى بوجه عام

فإذا أضفنا إلى ما أسلفناه ، سعة نفوذه بين المصريين ، وعمق تأثيره فى آلاف المريدين والمعجبين ، وتغلغل هذا التأثير فى قرائه بعد عصره بأجيال ، أدركنا مدى مساهمتـه فى الشلل العقلى ، والركود العلمى الذى أصاب مصر بعده .

الفصل الثانى

آراؤه فى الحياة السياسية

المراد بالسياسة فى عصره :

تولى الصوفية والفقهاء زعامة الروح والفكر فى مصر، إبان هذا العصر، ولم يحاول الأتراك اغتصاب هذه الزعامة ، وإن حاولوا استغلالها لصالحهم ، قانعين من غزو مصر بابتزاز أموالها ، ونهب ما يصل إلى يدهم من مغانمها ، وحسبهم أنهم أقروا السيادة الروحية على العالم الإسلامى فى الآستانة ، عندما نقلوا الخلافة إليها من مصر .

أما إدارة البلاد والدفاع عنها وحفظ الأمن فيها ، فقدكان موكولا إلى فئة واسعة الدراية بشئون القتال منذ أجيال طوال[1] ، وكانت القومية لفظا مجهول المعنى والدلالة فى نفوس الناس ، إذ كان الدين وحده موضع التقديس ،

---

(١) محمد فريد أبو حديد وهو يمهد لـ « سيرة السيد عمر مكرم »

وحسب الشعب من حكامه أن يكونوا من أهل ملته ، وأن يحسنوا القي
بأداء واجبهم ، ويتحروا العدالة فى تصرفاتهم ، وكانت الدولة العثمانية لا تأذ
لزعماء الشعب ، بالاشتراك مع نوابها فى حكم البلاد ـ وإن استجابت لمطال
الكثيرين منهم ـ ولم يكن هذا مثار الاستياء عند الشعب ، لأنه كان يجه
الدلالة التى تحملها اليوم ، القومية والجنسية وما إليها بسبيل، بل كان الجنو
من جانبهم لا يرضون عن اشتراك المصريين فى سلك الجيش ولم تكن وظيف
الحاكم فى هذا العصر، تقتضى تعهد شئون البلد الذى يحكمه ، والاضطلا
بإصلاحه وترقية شعبه ، وإن كان الشعرانى على ماسنعرف بعد ـ يوجب علي
الحاكم غير ذلك . وكانت مصر على ما أشرنا فى مطلع الكتاب ـ فى عزلة عر
العالم الأوربى كله .

كان من الطبيعى بعد هذا ألا نلتمس فى كتب الشعرانى ، أثراً للاعتزا
بالقومية أو مهاجمة لحكم الأجانب ، أو بيانا عن السياسة الخارجية التى يحسر
بمصر اتباعها ، أو نحو هذا مما لا تقتضيه روح العصر الذى يعيش فيه ، وحسب
أن نعرف موقفه من الحاكم الذى يسيء أداء وظيفته فى إدارة شئون البلاد
أو يعجز عن ضبط الأمن فيها ، وردّ العدوان عن أهلها

مذهبه فى طاعة الحاكم الظالم :

لم يكن من عمل الحكومات فى هذا العصر ، أن تهتم بالشعب وتعمل على توفير الرخاء له بإصلاح مرافق الحياة عنده[١] ؛ ولكنا نلاحظ أن الشعرانى ينص على أن وظيفة الإمام الأعظم ، القيام بمصالح المسلمين ، من سد الثغور وتجهيز الجيوش ، مستندا فى هذا إلى قول ابن عربى : إن الله قد أمر بوجوب إقامة الدين ، ولا يكون ذلك إلا بوجود الإمام ؛ (القيم) على أنفس الناس وأهليهم وأموالهم ، الحريص على منع كل عدوان ، وذلك لا يكون إلا بوجود إمام يخافون سطوته ، ويرجعون اليه ويجتمعون عليه ، لأن حاجتهم إلى الشعور بالأمن ، تعجزهم عن التفرغ لإقامة الشعائر الدينية[٢]

فإذا لم يقم الإمام بواجبه ، بقيت له وظيفته فى الظاهر ، وإن كان يعزل فى الواقع ، ولهذا وجب التزام طاعته ، وتجنب الطعن عليه ، مع الاعتراف بعجزه عن أداء واجبه ، لأن هذا الطعن اتهام لمن نصبه بالسفه وقصر النظر ، ولهذا نهى الله عن الطعن فى الملوك والخلفاء ، وطالبنا بالدعاء لهم ؛

(١) محمد شفيق غربال بك : الجنرال يعقوب ١٤ والرافعى ج ١ ص ٣٢

(٢) اليواقيت ج ٢ ص ١١٤ — ١١٦

واعتبرهم الوسيط بينه و بين المحتاجين ؛ ســواء أ كانوا ــ الملوك والخلفاء ــ فاسقين أم صالحين ؛ وعدولا أم ظلمة جائرين[١] .. ومثل هذا يطبقه الشعرانى على حكام مصر فى عهده ، من ولاة وأمراء !!

و يصرح الشعرانى بأن مقاومة الحاكم الظالم ، مجلبة للمتاعب والقلاقل ، لأن مثل هــذا الحاكم الجــائر لا يغفر لأحد عصيانه ، ولا يتسامح مع من يعمد إلى التنديد به ، ومن هنا وجبت مداراته ، وتجنب العمــل على إثارة حفيظتــه

وقد اتبع الشــعرانى هذه النصيحة ، وأسرف فيها ، حتى أخــذ يدعو الناس إلى التمــاس الأعذار ، للحاكم الذى يتمرد على أبسط قواعد العدالة ويســتخف بدين البلاد وتقاليدها ! و يطالبهم بمحاجة المنكرين عليه ، حتى يلزموهم الحجة ، فالولاة أتم نظرا من أفراد الشعب ؛ ولهذا حكمهم الله فى رقابهم . فــكل ما يفعــلونه يمكن حمله على الظن الحسن . وترجيح نفعــه للمسلمين و إن خفى وجه النفع فيه . . . ! ولماذا لا يندفع الشعرانى إلى هــذه المزالق .... ؟ إنه يروى فى كتبه كثرة من الشــواهد ، تنهض دليلا على أن من ينكر على ظلمــة الحــكام وأعوانهم . لا يلقى غير المهــانة والعقاب ؛ إنهم يثخنونه ضربا و يسومونه عــذابا ، ولا يزال الأذى يصــيب كل من « دخل

(١) البحر المورود ٥٤ و ٥٧ و ٩٥ ــ ٩٧ والعهود المحمدية ٣٧٨

فى شىء ليس هو من مقامه[1] » . ! فليحذر كل امرئ التدخل فيما لا يعنيه ، وليقف عند حده . لا يتجاوزه إلى ما يجر عليه الأذى ؛ ولا يفيد كثيراً ولا قليلا ... ! !

ويحبذ الشعرانى حرص شيوخ الطريق على تجنب الناس أيام الفتن ، مخافة أن ينقل عنهم ما يثير حفيظة الحكام ، ويستشهد على ذلك بمسلك كبار الصالحين منهم ؛ ويشجع الفقراء على الاقتداء بهم ، وينصحهم اذا اجتمعوا بغيرهم ؛ وعرض أحد هؤلاء لنقد الحكام أن يهروه ويهددوه بالطرد من مجالسهم ، إن عاد لمثل هذا العبث[2]

ولكنا أشرنا من قبل ، إلى أن شيوخ الطريق يحمّلون أنفسهم تبعات الظلم الذى يحيق بالناس ، وقلنا إن الشعرانى يعتبر نفسه ، مسئولا عن كل ما يعانيه الناس فى دائرته من ألوان العذاب ، فكيف يستطيع النهوض بمقاومة الظلم وكف العدوان ، إن كان ينصح بمداراة الحكام ، وتملقهم بالدفاع عنهم ، مع الاعتقاد فى فساد حكمهم .. ؟ لعله أراد التوفيق بين هذين الموقفين المتباينين ، عند ما قال إنه يتوخى التغيب عن حضور مشاهد الظلم ، حين يأخذ الولاة فى شنق المذنبين وشنكلتهم وخوزقتهم وخزمهم فى أنوفهم[3]

---

(١) لطائف المنن ج ٢ ص ٤٢ — ٤٣

(٢) بهجة النفوس ١٩٤ — ٥ (٣) العهود المحمدية ٣٤٩ — ٣٥٠

إلى غير هذا مما عرفناه ، و بمثل هذه اللباقة ، يخرج الشعرانى من هذا المأزق..

ثم يتم الشعرانى قصته مع الحاكم الجائر ، بتزوير صحبته ، والنص على احترامه ، متى كانت الصحبة لوجه الله[1] ! فإن هذه الصحبة تمكّن من استجابة الشفاعات ، وتكفكف من وجوه العدوان ، فإن ركب الحا رأسه ، ورفض مطالب الشيخ ، وجب احتمال رفضه ، وعدم الركون إلى هجره[2] ..!

هذا هو الدستور الذى يضعه الشعرانى للتعامل مع السلطان ونوابه أما مقاومة ظلمهم ، فغرورٌ يعترى الشيوخ ، و يجرهم إلى مهاوى الخطر ، فقد اتُّهم الكازرونى + ٩٥٥ بإثارة فتنة فى حلب ، فقرر أولو الأمر نفيه إلى رودس[3] . ! وقد أشرنا من قبل ، إلى القانون الذى أصدرته الدولة العثمانية بعقاب كل من عارض السلطان ، وتظاهر بصفات الملوك ، بالحبس أو النفى أو الإعدام[4] ، والشعرانى يكرر الحديث عن هذا القانون ، و يبسط شواهد تطبيقه على شيوخ الطريق ، والجزع يتولاه ، فينساق إلى إعلان ولائه وتملق الحكام اتقاءً لشرهم ، حتى ليأخذ فى تبرير ظلمهم ، بأن الاضطهاد فى أغلب الحالات ، لا يقع إلا على من أحب الدنيا وكلف برذائلها[5] ، و يقول

(١) البحر المورود ١٢٥ (٢) البحر المورود ١٨٨

(٣) الطبقات الوسطى ٢٢٦ والبحر المورود ٢٧٠ ــ ١ و ٣٢٨ ولطائف المنن ٧ و ٢٤٦ . (٤) البحر المورود ٣٢٨ وقد ذكر المناوى فى طبقاته الكبرى ص ٧٢ والشبلى فى تكميل النور السافر ص ٢٩٣ ما يفيد تطبيق هذا القانون على صوفية مصر

(٥) لطائف المنن ج ١ ص ٧ و ٩٦

ن الله هو الذى ولّى على الناس الحاكم الفاسق الجائر ، فالخروج على هـذا لحاكم ، عصيان لله وتمرد على حكمه ، بل بالغ الشعرانى فى تملق هؤلاء الحكام، لم يكتف بمطالبـة الفقراء بالتزام الأدب معهم ، والقيـام بحسن استقبالهم الاحتفاء بمقدمهم إذا خفوا لزيارتهم ، بل أوجب عليهم أن ينطووا على حترام هؤلاء الظلمـة و يضمروا لهم الحب سراً وجهراً ، حتى ليمرضون إذا سـامعوا بمرض أصـاب هـؤلاء الحـكام و يبرءون متى علموا بأنهـم رئوا[1] !

وفى الحق لقد كانت هـذه الدعوة ، غريبة على العصر الذى عاش فيه لشـعرانى ، فإن مقاومة الظلم ، إن كانت غير ميسورة لأكثر الناس ، فإن ضمار الضيق والحقد ميسر للجميع ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعهـا ، وقد سرح الشـعرانى فى معرض دعوته إلى أنه كان يجرى على نهج شيوخه ، فى لتزام الأدب مع الحـكام ، والإخلاص فى صحـبتهم ، والوفاء فى محبتهم ، حتى ليعتريه المرض إذا تسامع بمرض السلطان أو نوابه ، ولـكنه يعقب على هـذا قائلا إن هذا « أمر عزيز وقوعه فى فقراء ذلك الزمان[2] » ، ونهض مقاومة هـذه النزعة التى أفضت بأصحابها إلى الجهر باحتقار الحـكام ، و برر

---

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٩٢ والبحر المورود ٢٠٥ وبهجة النفوس ٣٢ — ٣٣ وفى ير هذا من كتبه . (٢) بهجة النفوس ٣٢ — ٣٣

مسلكه بأن الفقراء والناس يتساوون مع هؤلاء الظلمة فى الفسق والجور والفساد ، فإذا وقر الفقير أميراً ، كان معنى هذا أن ظالما يحترم ظالما[١] ! وهذا بالإضافة إلى أن ظلم الحاكم الجائر ، عقاب يفرضه الله على أهل الآثام والمعاصى من عباده . ! فالحاكم الظالم عدل الله فى أرضه[٢] ، وأدب الفقراء معه أدب مع الله[٣] ؛ فإن اعتزل وظيفته ، زالت ضرورة احترامه ، لأن التعظيم للرتب لا للذوات[٤] . . . ! إلى آخر ما نراه منشوراً فى كتبه ؛ ولم يكن غريباً بعد هذا كله ، أن يقف الشعرانى بعض كتبه ، على تأييد هذه الدعوات

حقيقة دعوته فى مناهضة الظلم

ولكنا نلاحظ أن هذه الدعوة ، قد صاحبتها دعوة أخرى مشت فى كتبه على استحياء ، ولعلها أدل على رأيه الصحيح من دعوته التى أسلفناها ، وعرفنا أن الخوف كان من أكبر بواعثها، إذ صرح ـ فى بعض نصوص له ـ بأنه يستثنى من ظلمة الحكام ، من خالفوا أحكام الشريعة[٥] ؛ وقرر موالاة

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٩٣
(٢) درر الغواص ٢٩ والجواهر والدرر ١٢٤
(٣) البحر المورود ص ٢٠٥
(٤) المصدر السالف ١٥٥ ـ ٦
(٥) بهجة النوس ٥٦

نصحهم ، وعدم تمكينهم من ظلم الرعية والجور على الناس[١] ، وعدم الركون إلى تملقهم ، لأن فى جهنم واديا يقال له « هبهب » أعده الله للظلمة والفقراء المداهنين الذين يتملقون الأمراء ، ويصادقونهم لغير مصلحة أو نصيحة[٢].

وواضح من هذا أنه يخالف الدعوة للرضا بمسلك الحكام الظلمة سراً وجهراً ، إلا أن هذه الدعوة ــ فيما يكبر فى ظننا ــ صدى الخوف من النفى والاضطهاد وما إليه بسبيل ؛ وقد كان الشعرانى عميق الشعور بغدر هؤلاء الظلمة به ، حتى كان يحذر شيوخ الطريق بالتزام الحيطة فى صحبتهم ، وعدم الغفلة عما يحتمل أن يحاك لهم فى الظلام ، مع ما لهؤلاء الخونة من دسائس ، ولكن الشعرانى كان يحرص على مداراة خصومه ، وتملق أهل السلطان منهم ، فليس ما يمنعه بعد هذا من التصريح مع الأمراء بغير ما يعتقد . ! ومن دلالات هذا الذى نرجحه ، أن من مؤلفاته التى ذكرها « بروكلمان » ، كتابا يحمل هذا الاسم « إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء ، إلى (شروط) صحبة الأمراء » والراجح أن فى هذه « الشروط » ما يؤيد ما قلناه ، بل إن لدينا على صدق ما نقول دليلا أقوى ، فهو يروى فى « البحر المورود » عن شيخه المتبولى ، أنه يؤثر فى حال الإنكار على الأمراء أضعف الإيمان ،

(١) العهود المحمدية ٣٣٨ (٢) تنبيه المغترين ١٥

بحيث لا يتجاوز الضيق بالظلم جدران القلب إلى اليد أو اللسان[١] !!
ولكنه يروى عنه فى طبقاته الكبرى ، أنه قال إن الفقير الذى لا يقتل من الظلمة ، عدد مافى رأسه من شعر ، لا ينتظم فى سمط الصادقين من الفقراء[٢] .. ! ! وهذه جملة تحمل من الدلالات مالا نجد معه ضرورة للتعقيب

على أن دعوة الشعرانى لاحترام الحكام والإذعان بظلمهم ، أشيع فى كتبه وأصرح من دعوته الثانية النحيلة ، ولهذا جاز الظن بأن نظرته إلى صلة الناس بحكامهم ، قد هونت من خطب احتمالهم للظلم ، ومهدت لأذعانهم للاستعباد ، وليس هذا بالهين اليسير ... وأكبر الظن عندنا ، أن هذه النزعة الخبيثة ، لم تفارق المصريين إلا أواخر العصر العثمانى ، حين بدأ ينهض فى مصر « رأى عام » تولى قيادته رجال الأزهر الشريف ، يملأهم الاعتزاز بنفوسهم والاستخفاف بالظلمة من حكامهم[٣]

(١) البحر المورود ٢٧١ (٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٧٧
(٣) فى الجبرتى ما يؤيد ذلك ، وقد أحسن تصوير هذه الروح الطيبة ، الأستاذ محمد فريد أبو حديد فى كتابه الممتع « سيرة السيد عمر مكرم »

الفَصْلُ الثَّالِثُ

آراؤه فى الحياة العملية

البطالة عند متصوفة عصره :

قد تباعد الحياة الروحية بين أهلها وأساليب النضال المادى ، ووجوه النشاط فى زحمة الحياة ، ومن أجل هذا كان شيوع التصوف ، استخفافا بمطالب الدنيا ، وانذاراً بركود الحياة العملية عند أهله ، فإن فسد هذا التصوف ودخله الدجل ، كان أدعى إلى البطالة و إيثار الدعة ، وهذا ما كان من أمر الكثيرين من الفقراء فى عصر الشعرانى ، و إن كان مسلكهم قد ارتفع عن مظان الريب عند الناس ـ مع استثناء الأقلية المستنيرة منهم ، وقد كان هؤلاء الفقراء يعتذرون عن إيثار البطالة على العمل ، بانقطاعهم لله وتفرغهم لعبادته ، بل كان الفقير إذا نزع إلى احتراف عمل يقتات من ورائه امتدت إلى زهده الظنون ، ونالت من سمعته الألسن[1] ...!

---

(١) العهود المحمدية ٦٥

مقاومتـــــه للبطالة :

ولـكن الشعرانى على كثرة ما كتب فى الزهد والحرمان ، قد ناهض الدعوة للبطالة ، ووضع للزهد مذهباً سنعرض لبيانه بعد قليل ، ودعا إلى الجمع بين العبادة والعمل ، وساق كثرة من الشواهد الدالة على حرص كبار السالـكين من أهل التصوف ، على تجنب العيش على صدقات المحسنين ، وهو صريح فى إيثار العمل على حياة التسول ، وإن أباح هـذه الآفة لمن اشتدت به الفاقة ، وأعوزه احتمال الإنفاق على من يعول ؛ بل أذعن الشعرانى لتمرده على البطالة ، حتى آثر حياة البدن على حياة الروح ، لأن هـذه قد تفرعت عن حيـاة الجسم ، وهى تتأثر بما يعتريه من وجوه العسر واليسر ، حتى ليفضى الضنك إلى تشتت الفـكر وبلبلة الخاطر ، ومن هنا كان يقول الشافعى : لا تشاور من ليس فى بيته دقيق[١] ! وفى ضوء هذه النظرة ، أوجب الشعرانى طلب التداوى من كل مرض يعترى الجسم ، وإن نصح بتجنب الالتجاء إلى غير المسلمين من الأطباء[٢] ! وكانت هذه الدعوة لا تتمشى مع حرص الصوفية ، على أخذ الجسم المريض بالعلاج المتـكلف ، إذعانا لقضاء الله ، وصبراً على بلائه[٣]

(١) المصدر السالف ٣٢٥ (٢) البحر المورود ص ١٨١

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٦٥ ـ ٦ وفى البحر المورود ٢٨١ يضع قواعد طبية لصلاح الأبدان فى كل زمان .

وقد صرح الشعرانى بأن ترك الكسب بالعمل المشروع ، والتماس الرزق عند المحسنين ، جهل بمقام التوكل الصحيح[١] ، لأن هذا المسلك يعرض الفقير للرياء ، ويفقده حسنات أعماله ، إذ يتقاسمها المحسنون الذين هيأوا له بإحسانهم سبيل أدائها ، وإن كان هذا لا يتنافى مع إباحة الرزق الذى يهبط على الفقير من حيث لا يحتسب[٢]

مذهبه فى الزهد :

لا ينبغى أن ينساق الفقير إلى الزهد بباعث من شعوره باللذة من نعيم الترك وخلو اليد وراحة القلب ، وإلا كان هذا انصرافا عن لذة إلى لذة قد تربى عليها ، وماهكذا يكون زهد العارفين بالله ، وإنما يأخذهم الشغف بحب الله ، ويستبدّ بقلوبهم هواه ، فيمسكون الدنيا بحذافيرها ، لا يتركون منها إلا مامسّته الريبة ، ثم يحسنون التصرف فيما يملكون ، فلا يكون زهدهم عن خلو وفراغ وإملاق .

ومن الجهالة ذم الدنيا إطلاقا ، لأن مثل هذا النفور ، لا يكون إلا أثرا لتعلق القلب بمحبتها دون الله ، وحجاب صاحبها بها عن الآخرة ، وآفة الدنيا :

---

(١) العهود المحمدية ٣٠٦ (٢) البحر المورود ١٤٤ والعهود المحمدية ٣٠٦ .

(٣) المناقب الكبرى ١٠٠ والعهود المحمدية ٢٤٦

النساء والمال والجاه والولد ، ولـكن الـكامل لا يهرب من هذه الآفات ، بل يستوعب حبها جميعا ، لأن دنيـا العارف فى يده وليست فى قلبه ، ومن هنـا كان النـكاح عبادة ! بل يحتم شهود الله أثناء النـكاح[١] ! وقد عرفنا عند الحديث على الحيـاة العلمية ، أن النـكاح فى رأيه ، أعظم النوافل التى تدنى الإنسان من ربه ، وتهيئه لتلقّى العلم اللدنى .. ! فان كانت الزوجة على فتنة وجمال ، وجب تجاوز اللذة بالاستمتاع بها ، إلى رفع الهمة إلى التمتع بجمال من هى من آثار صنعه تعالى ، ولهـذا جاز أن تُمهر الزوج غاليا ، ودفع ثمن الجوارى الجميلات باهظا ، لأن شهود سواد العيون وطول الأهداب وحمرة الشفاه والخدود ونحوه ، يفضى إلى الشعور بأكبار الله وشـكره على هذه النعم[٢] !

وقد بنى الشعرانى بأربع زوجات ، وكان مع هذا يقتنى الجاريات .. ! وقد اهتم بالحديث عن النـكاح ، فـكتب عنه فى « الميزان » ثلاثة فصول ، يعرض فيهـا أمره ، وشروطه وآدابه ، وما يحرم منه وما يحلل ... ويوفق فى كل ذلك بين مذاهب الأئمة[٣] ، ولم يغفل عن الحديث عنه فى كتبه الأخرى ..! ومثل هذا يقال فى سائر الآفات الأربع

والزهد عند الـكُمَّل لا يكون عن خلو اليد من متاع الدنيا ، وإنما يكون بخلو القلب مع امتلاء اليد ، وكمال المقام فى زهد القلب ، لا يتحقق بغير الزهد

---

(١) المناقب الـكبرى ١٠٠ والعهود المحمدية ٢٤٦ (٢) البحر المورود ٢٨١–٢.
(٣) انظر الميزان ج ٢ ص ١٠٣ – ١١٠

فيما يملك الإنسان التصرف فيه من غير مانع ، أما الزهد مع خلو اليد ، فربما كان مصدره الإملاق ، ولهذا قيل إن من شرط الداعى إلى الله ، ألا يكون كامل التجرد عن دنياه ، وهـذا بالإضافة إلى أن مثل هـذا الإملاق يحوج صاحبه إلى سؤال الناس بالحال أو بالمقال ، وبهـذا يهون فى نفوسهم أمره ، ويضعف عنـدهم تأثير تعاليمه ، وعلى الضد من ذلك ، إن كان صاحب مال يفيض عن حياته الخشنة ، فينفق منـه على مريديه وغيرهم من المحتاجين ، حتى لقد يغنى المـال عن الحال فى إغراء المريدين واستهواء المجاورين[١] ! وحقيقة الزهد زوال محبة المال والطعام والمنام ونحوه ، من قلب الفقير لا من يده ، والسالك يتبع أستاذه حتى يحرره من الكلف بالدنيا ، ثم يعود به إلى طلبها ، ويأمره أن يمسك ما كان ينهاه عنه ، مع التزام حسن النية ، واستعمال كل شىء فيما خلق له ، على الوجه المشروع من ذلك ، لأن حقيقة الزهد ، لا تقوم إلا فى زوال تعلق القلب ، بما لم يُقسم له[٢] .. !

والشعرانى مع هذا يعتقد على طريقة أقرانه ، أن الإخلاص فى عبادة الله ، والصدق فى السلوك إلى حضرته ، مجلبـة للرزق الواسع والمال الطائل ، على ما أشرنا من قبل ، وهو يسوق الشواهد على صحة اعتقاده ، بالزوايا التى عاشت على ما يفتح الله ، حتى إذا حبست عليها الأوقاف وأجريت الأرزاق ، اطمأن

(١) العهود المحمدية ٦٥ . (٢) المصدر السالف ٢٣٠

أهلها وركنوا إليها ، فانتهى فساد إخلاصهم بقلة الرزق وضيق الحال .. !
وإن كان الأدنى إلى الصواب فيما يلوح ، أن يقال إن المحسنين قد كفّوا يدهم عن العطاء المستور ، حين تسامعوا بنبأ هذه الأوقاف ، فتأثرت بهذا حالة العيش في تلك الزوايا .. !

ولكن الشعراني رغم حرصه على الدعوة للاحتراف والحض على التكسب الحلال ، وزهد الفقير في غير ما يملك ، كان ـ رغم هذا ـ لا يحترم الملكية ولا يرضى بالادخار . فهو يغتبط إذا افتقد شيئا ، بالغا ما بلغت قيمته ، هوانا بالدنيا ومتاعها ، وتنشيطا لهم إخوانه في الطريق ـ إلا إذا كان الشيء المفقود، من الحلال بحيث ينعدم نظيره في عصره ، أو ملكا لغيره من الناس ، فإن لم يكن كذلك ، أبرأ ذمة السارق أو المغتصب ، حتى لا يطالبه به يوم الحشر .

والله وحده هو مالك الدنيا وما فيها ، والرزق بيده يمنحه من شاء ، ويقبضه عمن أراد من عباده ، فلا ينبغي أن يضيق الإنسان إذا افتقد بعض ما يملك ، لأن جميع هذا مصيره إلى الفقراء والمعوزين ، وما يسرق السارق ولا ينهب المغتصب ، إلا عن حاجة وعوز[1] !

وإذا جاز هذا كان طلب الربح مع تكلف الجهد من أجله غير مباح ، متى وجد المرء ما يسد رمقه ويستر عورته ، والسعي في طلب المال ، قد يُفَوِّت على صاحبه النهوض بشعائر الدين ، ومتى صح هذا كان الادخار مرذولا ،

---

(١) في لطائف المنن ج ١ ص ١٤٨ تفصيل ذلك .

لأن الدعوة إلى التكسب ، مرهونة بإنفاق الكسب فى وجوهه المشروعة ، وإن أبيح الادخار عن أمر إلهى أو كشف يبديه ضروريا لمحتاج ، على يد هذا المدخر ، ومن هنا فصل الشعرانى فى شروطه وقواعده [١]

ولكن الشعرانى مع مقاومته للبطالة ومهاجمته للتسول ، يبيح الشحاذة لنوع من الفقراء ، يطوفون بالبيوت والناس يسألون الإحسان ، مع قدرتهم على التكسب ، مبررا مسلكهم بأمرين : أولهما جمع الصدقات رغبة فى توزيعها على المعوزين ممن كبرت بهم السن ، أو أقعدهم المرض عن اكتساب القوت؛ وثانيهما رغبتهم فى أن يحملوا عن المحسنين آثامهم ، اقتداء بالقطب والأوتاد ومن إليهم من أهل الصلاح والورع [٢] ، وقد جاء فى الحديث أن هدية الله للمؤمن ، وقوف السائل ببابه ...

على أن الدعوة للتكسب ، تمشيا مع ضرورات الحياة ، لاتبرر الحط من شأن الاعتكاف فى المساجد ، والانقطاع فى الزوايا ، فما أبيح الجهاد فى طلب الرزق ، إلا لأنه يجذب القلب ، ويحرمه الاستغراق فى العبادة ، فإذا أمن العابد شر هذا التلفت نحو الدنيا ، كان الاعتكاف أحق وأولى .. ! ومن هنا

---

(١) الجواهر والدرر الوسطى ١٣٩ ودرر الغواص ٥٨ والبحر المورود ١٢٧ ــ ١٢٩

(٢) درر الغواص ١٤ ــ ١٥

جاءت مكانة الخلوة عند أرباب الطريق[١] ، والواقع أن إيثار السعى على التوكل أو العكس ، مردّه إلى الله ، فما سبق فى علم الله أنه سيصيب الإنسان، واقع لا محالة ، والرزق فى طلب صاحبه دائر ، والمرزوق فى طلب رزقه حائر ، ومن لم يوهب الكشف ، مخير بين الإقدام على السعى أو الإحجام عنه ، وذلك مذهب المحققين من الصوفيـة ، أما المتكلمون فيما يروى الشعرانى ، فإن فريقا منهم يرجح التوكل إطلاقا ، وفريقا يرجح الاكتساب إطلاقا[٢]

مناقشة مذهبه

على أننا نلاحظ فى آراء الشعرانى تناقضا ملحوظا ، فهو يفصل فى بيان ما يقتضيه الزهد من خلو القلب مع امتلاء اليد ، ثم يحرم على التاجر السفر متى وجد ما يسد رمقه ورمق من يعول . ! ثم هو يترك الخيار ـ لغير أهل الكشف بصدد السعى أو التوكل ، احتراماً لما سبق منهما فى علم الله ، وهذا يفضى إلى إيثار البطالة لأن السعى أشق وأفضل على النفس ، ومع هذا يهاجم البطالة وأهلها فى غير رفق ، ويدعو إلى العمل فى صراحة ملحوظة . ! ثم هو يغرى الفقراء بالملكية ، لأن الزهد لا يستقيم مع خلو اليد ، ولكنه يعمل على تحقيرها وإلغائها ، ويحرم ادخار الذهب والفضة صراحة لا تلميحا ، مع

(١) العهود المحمدية ٨٦ (٢) اليواقيت ج ١ ص ١٣٩ ودرر الغواص ١٨

جعل السعى فى المرتبة الثانية بعد الاعتكاف فى المساجد والزوايا ، مع أنه قرر بأن حياة الأبدان مقدمة على حياة الأرواح ، وهذا كله رغم أنه فى بعض النصوص ، يترك الخيار للفقير بين إيثار السعى أو التوكل . ! وهو يقرر أن شيوخه يعيشون على ما يفتح الله، وأن العيش على رزق معلوم مجلبة للمتاعب، ولكنه يصرح بأن الكسب أفضل من العيش على ما يفتح الله ، وهذا تناقض ما لم يكن قصده التكسب عند المريدين ومن لم يرتفعوا إلى مرتبة الكمل من العارفين ... الخ

و إن قيل كيف يُعتبر زاهدا فى شهوات الجسم ، مع حرصه على حظه من الزوجات الأربع والجاريات ، كان فى الأمكان أن يقال إنه يرى أن النكاح عبادة ، وأن الزهد لا يكون مع خلو اليد أو القلب .. !!

مدى ملاءمة تعاليمه لروح عصره :

فإذا أغفلنا أمر هذا التناقض الملحوظ ـ فى كل آثار الشعرانى ـ و بحثنا عن مدى ملاءمة تعاليمه لروح عصره ، قلنا إنصافاً له ، إن الحياة المصرية فى عصره كانت بسيطة غير معقدة ، لا تتطلب كل هذا النضال الذى تستلزمه حياتنا الراهنة، لأن المدنية التى أدركت حياتنا ، قد عقدت بساطتها ، وحوّلت أنظارنا إلى تقديس المادةوعبادتها ، وأصبحت هذه الحياة المادية المعقدة ، لا

تتمشى مع الزهد فى كثرة المال ، والتوانى فى طلب الرزق والنفور من الادخار والتفرغ لعبادة الله .. الخ

على أن إسراف الشعرانى فى الانصراف عن متاع الدنيا ، ودعوته للانقطاع للتهجد والذكر يفضى إلى الركود ويعوق التطور السريع ، فى عصر تمضى قافلته قدما من غير تمهل ولا إبطاء .

———

الفَصلُ الرّابعُ

آراؤه فى الحياةِ الأخلاقية

أثر الطريق فى الفضائل السلبية :

فى التصوف رياضة روحية شاقة ، تقوم على مجاهدة النفس والترقى فى المقامات ، للاستغراق فى حب الله ، مع تحامى الاستجابة للرغبات والشهوات ، واتّقاء مواطن الرِّيَب ومظان السوء، والتهيؤ للأذواق والمكاشفات وما إليها بسبيل، ومن تهيأت له هذه المرتبة، فقد جنَّب الناس أذاه، وقدم لهم ما استطاع من وجوه البر والخير . وقد كان الشعرانى صوفيا واسع الإلمام بالدين وعلومه ، فخلف تراثاً ضخما ضمنه بيان مذهبه فى أخلاق السالكين ، وأغرى به كثرة المريدين الذين يسلكون على يديه ، و بث تعاليمه فى نفوس الألوف من قرائه .

ويصرح الشعرانى بأن غاية الطريق القرب من حضرة الله الخالصة ، ومجالسته فيها من غير حجاب ، وأما الثواب فحكمه حكم علف الدواب[1] ،

---

(١) قواعد الصوفية ص ٣

لأن الفقير يحب الله لذاته ، وليس لإحسانه ، ومن عكس القضية كان عبداً للإحسان لا عبداً لله[1] والوصول إلى هذا الحب ، يتطلب رياضة روحية شاقة تقتضي عدم الركون إلى أرض شهوة مباحة ، فضلا عن شهوة محظورة ، والحرص على تطهير الجسم ، بالجوع والصيام والحرمان والزهد ، ومحاسبة النفس على ما تبدى من نزعات أو غفلات ...

على أن الشعرانى مع حرصه على جعل الطريق أداة لحب الله ، يجارى أهل الفقه فى اتخاذ الدنيا جسراً إلى الآخرة ، وتركيز الاهتمام بالجنة والنار ، حتى تمّحى الرغبات فى المطالب الدنيوية ، ومن شأن هذه النظرة ، أن تفضى بأصحابها — سواء أكانوا من أحباب الله أم من دعاة العمل للآخرة — إلى الأعجاب بالفضائل السلبية ، كالزهد فى طلب الدنيا والعفة والقناعة والتواكل ، والصبر على الأذى واحتمال المكاره ، والعفو عمن أساء أو أذنب ، وغير هذا مما حفلت به كتب الشعرانى ، وقد أشرنا من قبل إلى حملاته العنيفة على من ادعوا التصوف ، ممن مرقوا من خصائصه التى لا يستقيم بدونها ، ومن أجل هذا كثر حديثه عن الزهد والتوكل والتعفف والرضا بالظلم ، لاعتبار صاحبه عامل الله فى أرضه ، وقبول الإساءات لأنها عقاب ينزله الله بنا ، جزاءً على ما قدمنا من وجوه الإثم والمعصية . ويفاخر الشعرانى بقدرته على احتمال الأذى

(١) الجواهر والدرر ص ١٠

والعدوان من غير أن يبزع إلى الشكوى ، أو يستشعر من أجله ضيقا . . !
فمن دلالات هذا أن رجلا قبض على عنقه ، وانهال عليه صفعا ولكما
وركلا ، بحجة أنه أفسد امرأته ، ثم تبينه بعد ، فإذا هو غير من أراد
الانتقام منه ، فتركه وانصرف. ! والشعرانى لا يشعر قط بأن إساءة
وجهت إليه . ! وألزمه جماعة السلطان بإحضار الأمير محيي الدين ابن
أبي أصبع ـ وكان يتردد عليه قبل اختفائه ـ وأغلظوا عليه حتى هموا بقتله ،
ولكنه لبث على هدوئه والابتسامة تعلو ثغره ، عن شعور طبيعى لا أثر
للتكلف فيه[1] ! ويمضى الشعرانى إلى مطالبة الفقراء بالعفو عمن يثخنهم
ضربا ويوسعهم سبا ، وينهش أعراضهم أو يقتل أعزاءهم ـ من أب أو أخ
أو ولد[2] !

ثم يقول فى نغمة تذكرنا بسماحة « سقراط » قديما ، « وغاندى » ومن
إليه حديثاً ، إنه يبغض الشر ويعطف على الأشرار ، لأنهم إخوة فى
الإنسانية قد ضلوا سبيلا ، ومن الخطأ عدم التفرقة بين ذات الشرير وصفاته ،
وتوبة الشرير تجعله حبيبا إلى النفوس صفة وذاتا[3] ،ومن أقدم على إيذاء غيره
فقد عصى ربه ، ونسى أن عين الله ساهرة لا تغفل ، وأن المذنب فى غفلة

---

(١) المناقب ٨٨ (٢) العهود المحمدية ١٨٠
(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١١ و٦٣ والمناقب ٨٩ .

عن عبوديته لخالقه ، وهذا أحق بالرحمة والرثاء منه بالعقاب والانتقام[١]

ومن أجل هذا كان الشعرانى ، لا يؤاخذ عدوا على عداوته ، لأنها إن كانت عن حق ، أضحت المؤاخذة حماقة ، وإن كانت عن غير حق ، اعتبر عدوه مبتلى فى دينه ، ونزع إلى طلب الرحمة له ، لا الغضب عليه ، فإن العاقل من يعامل الناس بما يجلب له أجراً ، لا بما يجر عليه وزراً[٢]

ولكن الدعوة إلى الزهد فى الدنيا واحتمال الأذى والصبر على الهوان ، لا تتمشى مع التحريض على العدوان ، بل يؤازرها النزوع إلى الوئام ، وتنقية النفس من أدران التباغض ، وتحرى التآلف والتوادد وقد حرص الشعرانى فى الكثير من كتبه ، على التوفيق بين علماء الرسوم وعلماء الحقيقة ، وتحريم التباغض والتحاسد ، وتوخى زيارة المرضى ، والسؤال عمن تغيب من الإخوان ، والمبادرة إلى خدمة المحتاج ، ومواساة الحزين ، وتوقير الصغير للكبير . ورد الإساءة بالحسنى . . ونحو هذا من الفضائل .

موقفه من الفضائل الإيجابية

والشعرانى ـ كغيره من الصوفية ـ لا يميل إلى الحض على الفضائل الإيجابية التى تستلزم جهودا فى نضال البقاء ، وقد اعتبر الكثير منها خروجا على أوضاع الطريق وتقاليده ، لأن الحرص على الدنيا مرد هذه الفضائل من إقدام

(١) لطائف المنن ج ٢ ص ١٨٢ (٢) المناقب ٩٤

وشجاعة فى مقاومة الظلم وكف الأذى ، والسعى فى طلب الحق المسلوب ، والظفر من الدنيا بأوفر نصيب. والتزود بمثل هذه الفضائل ، لا يستلزمه السلوك إلى حضرة الله ، ولا السعى إلى جناته

فالأخلاق التى روج لها بين مريديه ، هى أخلاق العبيد فيما يسميها « نيتشة » ومن إليه من دعاة القوة ، وهى تلائم حياة اللين والدعة ، ولا تتفق مع الحركة السريعة والوثبة العاجلة ، وإن كان الإنصاف يقتضينا أن نقول إن الحياة فى عصره ، كانت لا تتطلب من حدة الكفاح ما تستلزمه فى عصرنا الحاضر ، وقد كانت الحكومة فى عصره تكتفى بجمع الضرائب والدفاع عن البلاد ، وصد الغارات والفصل فى شكاوى الناس ، ولا تحفل بترقية الشعب ، بالعمل على إقامة المستشفيات والمدارس والمصانع ونحوها ، ومن هنا تتضح قيمة الدعوة التى بشر بها الشعرانى .

موقفه من الصوفية الخارجين على الشرع :

ويبدو الشعرانى ـ فى أكثر ما يكتب ـ حريصاً على التزام ظاهر الكتاب والسنة قولا وعملا ، ولكن نزعاته الصوفية كانت كثيراً ما تدفعه إلى تأييد ما لا يتفق مع ظاهر هذه النصوص ، ومن هذا موقفه من طائفة عرفت بين صوفية الإسلام منذ القدم ، ادعى أصحابها بأن من بلغ الغاية

القصوى من الولاية ، سقطت عنه الشرائع كلها من صلاة وصيام وزكاة . . وحلت له كافة المحرمات من زنا وخمر وميسر[١] ..! ؛ وقد وجد لهذا النزوع أتباع فى عصر الشعرانى فى مصر ، زعموا أنهم التزموا العمل بقواعد الشريعة حتى « وصلوا » إلى الحضرة الإلهية ، فأغناهم هذا عن التزام هذه القواعد ، مدّعين سقوط التكاليف الدينية عنهم ، و إباحة المحرمات لهم ، وقد أنكر المناوى + ١٠٣١ تلميذ الشعرانى هذا الاتجاه ، وخطأ من يقول إن الولى إذا بلغ الغاية فى المحبة وصفاء القلب وكمال الإخلاص ، سقط عنه الأمر والنهى ، ولم يدخل النار بارتكاب الكبائر ! ! وصرح بأن هذا باطل بإجماع المسلمين[٢]

على أن الشعرانى قد أذعن لهذا الإتجاه و إن قصره على فئة من الأولياء ، إذ بين الأولياء من أوتى عقل التكليف ، فكان بهذا قدوة الناس فى التزام ظاهر الكتاب والسنة ، إذ أن الله لا يوجب شيئا أو يحرمه على ألسنة رسله ، ثم يبيحه لأحد من أوليائه ، إذ لا ينسخ الشريعة إلا من جاء بها ، وقد كان « محمـــد » ﷺ آخر الرسل ، فليس لشرعه ناسخ أبداً . ومن هنا ذهب ابن عربى ، إلى أن الولى لا يجوز له قط أن يبادر إلى فعل معصية ، قد اطلع من طريق كشفه على تقديرها عليه[٣] ؛ ولما سئل

(١) ابن حزم : الملل والنحل ع ٤ ص ٢٢٦ (٢) طبقات المناوى الكبرى ص + ٧ (٣) اليواقيت ع ١ ص ١٣٥

أبو القاسم الجنيد ، عن هؤلاء الواصلين الذين يتخطون أوامر الدين ونواهيه ، قال إنهم صدقوا فى الوصول ، ولـكن إلى سقر[١]

ولـكنه يرى أن فى هـذا الموقف ، جوراً على طائفة من كبار شيوخه ، ممن أوتوا عقل التكاليف ، ومع هذا أهملوا القيام بتكاليف الدين ، وتمردوا على قواعده تحت بصر الجمهور وسمعه ، فنهض الشعرانى للدفاع عنهم ، زاعما أنهم يقومون بفرائض الدين ، فى خفاء عن الأنظار . . ! ! فشيوخه الذين كانوا لا يقيمون الصلاة أمام الناس ـ من الخواص والمتبولى والدشطوطى ـ كانوا يؤدونها فى بلاد الله النائيـة المقدسـة ، إذ آتاهم الله القدرة على طى الأرض فى لمح البصر[٢] ! أما الذين يرتكبون المنـكر والبغى وما إليه ، فإنهم لا يقدمون على هـذا العبث فى واقع الأمر ، وإن أوهموا الناس به ، حتى ينصرف هؤلاء عنهم ، ويكفوا عن الحديث عن تقواهم ، ويزيدون فى ثوابهم بالإنـكار عليهم ، ويمكنونهم بهـذا كلـه من التفرغ للذكر والتهجد[٣] ؟

هـذا موقفه من أمر الخارجين على الدين من أولياء الله ، الذين أوتوا عقل التـكليف ، أما الذين حرمهم الله هبة العقل ، وهم أرباب الأحوال من

---

(١) اليواقيت ج ١ ص ١٣٦

(٢) فى درر الغواص ٥٥ ـ ٥٦ واليواقيت ج ١ ص ١٣٥ وغيرها أمثلة كثيرة توضح رأيه (٣) الطبقات الـكبرى ج ٢ ص ١٢٩ وفى غيرها أمثلة كثيرة يؤيد بها رأيه .

بهاليل ومجاذيب ومجانين ، فقد ارتفع عنهم التكليف ، لأن ذهاب عقولهم كان عن أمر طرأ عليهم من قبل الله ، وكانوا أضعف من أن يحتملوه ، فتساووا بهذا مع الحيوان الذى لا يحاسب عما يفعل ، مع قدرته على الكشف الذى يزيل به الحجب[١]

وهذا إتجاه عرف فى الإسلام من قبل ، و بشر به الممتازون من مفكرى أهله ، وحسبنا من هؤلاء « ابن خلدون » فقد قرر فى فصل عقده عن حقيقة النبوة والكهانة ونحوها ، أن هؤلاء المعتوهين ، قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، ولكن التكاليف الدينية قد سقطت عنهم . ! فأنكر الفقهاء ولايتهم ، ظنا بأن الولاية لا تكون بغير عبادة « وهذا غلط »[٢] ! بل عرف هذا الاتجاه عند غير المسلمين[٣]

بل إن فى بعض ما يرويه الشعرانى عن نفسه ، ما يثير كل حيرة ، فهو رغم دعوته العريضة التى يؤكد فيها حرصه على التزام ظاهر الكتاب والسنة ، يعترف مرة ـ فى غير استحياء ـ بأنه أفطر فى رمضان عشرة أيام ، ابتهاجا بشفاء السلطان سليمان ن عثمان ، من ألم أصاب رجله . . ! و يقول

---

(١) اليواقيت ج ١ ص ١٣٦

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦ ـ وانظر كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام »

(٣) أبان عن هذا فى العالم القديم Ciceron فى كتابه « العلم بالغيب » Divination وقد نقلناه إلى العربية ، وألحقنا ترجمته مع التعليق عليها برسالتنا عن الأحلام فى الدكتوراه ، وسننشره قريبا

إنه أفطر فى فرص أخرى ، منها ما كان بشأن الوزير على باشا حين كان نائباً فى مصر . ؟ ! وأن هـذا كان شأن شـيوخه من « الخواص » ومن إليه[١] .! وما من شك فى أن إفطار رمضان لمثل هذا السبب التافة ، لايبيحه مصدر من مصادر الشريعة الإسلامية ، ولـكن مثل هذا المروق ـ فيما يلوح لنا ـ مرده إلى مبالغة الشـعرانى فى إظهار الولاء للحكام ، فقد كان ـ على ما عرفنا ـ يخشى بأسهم ، ويخطب ودهم ، فإن صح هـذا الاحتمال فى نفى مايرويه عن نفسه من إفطار رمضان ، فما أضل طريقته فى إعلان ولائه . !

ولـكن ، حسبه أن يصفه المستشرق ما كدونالد بأنه رجل أخلاق ، به أنفة خلقية عالية[٢]

---

(١) بهجة النفوس ص ٣٣

(2) D. B. Macdonald, The Religious Attitude and Life in Isla[m] P. 148

كلمة أخيرة

مكانته

أبنّا فيما أسلفنا ، عن بعض ما تهيأ للشعرانى من وجوه العلم وأسباب
التصوف ، ووازنا بين مثله العليا كما جرت فى بطون مؤلفاته ، ومسلكه
إزاءها كما بدا فى أساليب حياته ، وعرفنا الكثير من خصائصه التى رفعته
إلى مرتبة العظماء ، وإن لم تنتزعه من صفوف البشر ، وتنضو عنه مالا يفارق
الناس من وجوه المآخذ

وقد سمت إليه الزعامة فى الفقه والتصوف حتى انفرد بها أواخر عمره
وعند هذين كانت تلتقى وجوه العلم فى عصره ، وبهما استبد بهوى الجماهير
وانتزع إعجاب الفقهاء ، واستل افتتان الأمراء ومن إليهم من الحكا
حتى أضحت زاويته مركز الحكم السياسى فى مصر .

فلما استوفى الشعرانى فى الحياة أنفاسه ، أضفت رهبة الموت على اسم
سحرا وقدسية وجلالا ، وأضاءت الجوانب التى كدرت الخصومة صفاءها ف

حياته ، وزادت من إذاعة آرائه فى العالم الإسلامى طولا وعرضا ، فإذا عرفت الطباعة كان حظ مؤلفاته منها موفورا ، وما نشر منها تكررت طبعاته مرات ومرات . ولا تزال دور الكتب فى العالمين الأوربى والإسلامى ، تحتفظ بالكثير من فيض كتبه مطبوعا ومخطوطا ـ و « بروكلمان » أعدل شاهد على ما نقول ، وقد ساعد على هذا الافتتان ، بساطة أسلوبه ، وتجرده من المحسنات البديعية والتنميقات اللفظية ، وإرساله مطلقا من غير تكلف

الشعرانى فى نظر المستشرقين :

يتحدث الأستاذ « نيكلسون » عن العالم الإسلامى منذ فتح المغول ، وركود الثقافة والآداب عند أهله ، واقتصار علمائه على الجمع والتقليد ، ثم يقول إننا إذا استثنينا شخصيتين شاذتين ، هما ابن خلدون المؤرخ ، والشعرانى الصوفى ، لم نجد فى آثار العصر بوادر انطلاق أو انتاج خصب مثمر ، أو أى أثر لتفكير « أصيل وضيء[1] » . ويقول عنه فى موضع آخر من الكتاب نفسه : كان الشعرانى ـ مع كل وجوه القصور فيه ، مفكرا مبدعا أصيلا ، أثر تأثيرا واسع المدى ، يشهد به إلى يومنا الحاضر ، إلحاح القراء إلحاحا متصلا فى طلب مؤلفاته[2]

---

(1) Nickolson P. 242 - 3 (2) Ibid P. 464

ويقول الأستاذ « ماكدونالد » Macdonald فى كتاب له : إن الشعرانى كان رجلا درّاكا نفاذا مخلصاً واسع العقل[١] ويقول عنه فى كتاب آخر له إنه كان يجمع بين أعظم المميزات تضادا ، وأنه كان مشرعا ذا « أصالة » ونفاذ ، كان عقله من العقول النادرة الخلافة فى الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى فى الإسلام[٢]

ويقول الأستاذ « ڤولرز » إن الشعرانى كان من الناحية العملية والنظرية ، صوفياً من الطراز الأول ، وكان فى الوقت نفسه كاتبا بارزا « أصيلا » فى ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحا يكاد الإسلام لا يعرف له نظيرا[٣]

وبمثل هذه الروح يتحدث عنه أكثر المستشرقين ؛ ويلوح لنا أن « أصالة » الشعرانى فى الفقه أكثر منها فى التصوف ؛ يضاف إلى هذا قول « ڤولرز » عن مؤلفاته التى تجاوزت السبعين عدا ، إن من بينها أربعةوعشرين تعتبر ـ فيما يرى صاحبها نفسه ـ ابتكارا محضا أصيلا لم يسبق إليه أبدا ، ولم يعالج فكرتها أحد قبله ؛ ويبدو لنا أن هذا صحيح إلى حد كبير ؛ بمعنى أن وجهالابتكار أنه طرقفى علاج موضوعاته اتجاهات طريفةمبتكرة ، تبدو فى مثل محاولته التوفيق بين المذاهب الأربعة ، أو بين أهل الكشف والعيان ، وأهل النظر والاستدلال . . إلى آخر ما عرفنا من قبل .

---

(1) Aspects of Islam P. 273 (2) The Religious Attitude P. 148
(٣) مادة الشعرانى فى Ensy. of Religion & Ehics

وبهذا التفسير الذى رجحناه ، لا تكون « الأصالة » شاهدا على عمق التفكير ودقة النظر ، وقد صدق الأستاذ شاخت Shacht فى قوله[١] إننا مع اعترافنا بخصوبة إنتاجه ، نرى ضرورة الاعتدال وعدم الإسراف عند تقدير عقليته .

وهذا صحيح فيما نرى ، وحسب الشعرانى ، إيمانه العميق بالقوى الخفية ، واستخفافه بالعلاقات التى تربط بين العالل ومعلولاتها ، شاهدا على حقيقة عقليته، وما أكثر مراعمه بصدد ما وقع له مع الأرواح والملائكة والجن والعفاريت ، والكرامات وخوارق العادات ، فان كتبه حافلة بهذه المزاعم ، وحسبنا منها نموذجا ، يتمثل فى موقفه من الجن

أخذت الجن تهيج ثائرته أثناء مقامه بمدرسة « أم خوند » فكانت تطفئ مصباحه وتزعج أولاده ، فكمن لها حتى إذا ظهر أحدها قبض على رجله ، فراح هذا يستغيث ولا مغيث . . ! وأخذت رجله ترق حتى أضحت كالشعرة فى يده . ! واختفى الجن من هذه المدرسة بعد ذلك . ! وكان فى مغطس جامع الغمرى جنى يؤذى الناس ، فألقى الشعرانى بنفسه فى المغطس وتعقبه حتى اختفى ولم يظهر بعد ذلك[٢] !

وأرسل إليه أهل الإيمان من الجان عام ٩٥٥ هـ أسئلة فى قرطاس يحمله

(١) مادة الشعرانى فى Ency. of Islam

(٢) المناقب الكبرى ١٣٠ و ١٣٥ (١٠ — ١٤)

أحدها فى فمه ، وقد اتخذ صورة كلب أصفر اللون ، وفيها تقول : ما قول علماء الإنس ومشايخه فى هذه الأسئلة المرقومة ؟ لأنها أشكلت علينا وسألنا عنها مشايخنا من الجان ، فقالوا إن هذا التحقيق لا يكون إلا عند علماء الإنس ، وقد أجاب عنها الشعرانى بكتابه : « كشف الحجاب والران عن (وجه) أسئلة الجان » ! واسترعت هذه الظاهرة نظر المستشرقين من أمثال Flügel و Kern وماكدونالد الذى يتحدث عن اتصال الأولياء بالجن فى الإسلام ، ويقول : إن هذه الظاهرة إذا كانت مألوفة فى العالم الإسلامى ، فإنها لا تبدو على نحو أوضح مما نراها عليه عند الشعرانى ، الذى كان على اتصال دائم بعالمها الخفى غير المنظور .. ويعقب الأستاذ بالأشارة إلى الكتاب السالف الذكر الذى كان رداً على أسئلة الجان[١] ـ وما أكثر اتصال الشعرانى بالموتى من أولياء الله ، وأحاديثه ووقائعه معهم ، ولا يكاد يخلو منها كتاب له[٢]

ومن هنا كان الأصح أن يقال : إن آثاره على كثرتها ، وعظم ما لقيت أثناء حياته وبعد مماته من رواج ، ورغم ما امتازت به من الإحاطة والشمول وسعة النظر ، كانت تعوزها الأصالة وينقصها العمق ، الذى يبدو فى الأنظار الفلسفية الدقيقة ، وإن ألح ولَجَّ فى إلحاحه ، بأنها فتح إلهى لم يسبق إليه

(١) المحاضرة الخامسة فى كتاب The Rel. Attitude ص ١٤٨ ـ ٩

(٢) انظر مثلا ص ١٥٧ ـ ٨ ج ٢ من الطبقات الكبرى فى وقائعه مع السيد البدوى

أبداً ، ويزيد فى بيان عقليته ، وجوه التناقض الملحوظ فى كل آثاره ، وقد عرفنا عنها الشىء الكثير .

تأويل تناقضه

ولكننا رغم ما أبنا عنه من وجوه تناقضه مع نفسه ، نميل إلى حسن الظن بتفكيره ، وإن كنا على حذر من المبالغة فى تقديره ، إذ أن فى الإمكان — على سبيل الاحتمال — أن نقول ، إن الكثير من وجوه التناقض فى آرائه قد تحراه وقصد إليه عامداً ! أو اضطر إليه كوسيلة لتحقيق غاية تعلو عنده على كل غاية :

كان الشعرانى حريصاً على أن ينتزع من خصومه وأقرانه الزعامة الروحية فى عصره ، وكان لرغبته ما يبررها من علو كعبه فى العلم والتصوف معاً ، وتفوقه على أهلهما جميعاً ، ولكن بعض الفقهاء كانوا ينفسون عليه مكانته ، فلم يكن بد من أن يترضاهم ويتألف قلوبهم جميعاً ، ولو كان هذا على حساب رأيه الصحيح فيهم ، ونظرته الحقة إلى علومهم ، وكانت نزعته الحقيقية تطل من سطور كتبه بين الحين والحين . . !

ولم تكن هذه الزعامة ميسورة بغير الدعوة لها بين حكام البلاد ، واتخاذ علاقاته الطيبة بهم ، أداة لإذاعة فضله بين الناس ، فإن دعا لاحترامهم وتوقير

الظلمة منهم ، كان هـذا على حساب رأيه الصحيح فى مناهضة الظلم وأهله ، ومن هنا سارت الدعوتان المتناقضتان فى كتبه جنبا إلى جنب .. !

والطموح إلى الزعامة ، يقتضى الأكثار من المريدين ، وهذا يستلزم الاحتفاظ بمن خف منهم إلى صحبته ، و إلزامهم بآداب لاتمكنهم من مفارقته ثم يتطلب تحقيقُ غايته ، الدعوة عند مريدى غيره من شيوخ الطريق ، إلى مفارقة شيوخهم ، واللحاق بهلاسلوك على يديه ، من غير أن يستطيع الكشف عن حقيقـة نواياه فى دعوته الأخيرة ، ومن هنا عاشت الدعوتان المتباينتان معاً فى الكثير من كتبه ! وعلى هذا النحو نستطيع أن نفسر سائر وجوه التناقض عنده .

و يبرر احتمال هذا التأويل ، ما نلحظه عنده من طلب الأمان والتماس السلامة ، فى كافة أقواله وأعماله ، فهو يضع اليواقيت بجزءيه ليطابق فيه بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل النظر ، و ينشر هذه الدعوة فى سائر كتبه ، و يؤلف الميزان بجزءيه ليوفق بين أقوال أئمة الشريعة جميعاً ، رغبة فى انتزاع التعصب من قلوب الناس ، وقبول آرائه من غير تبرم أو ضيق .. . ! بل إن فى صريح نصـوصه ، خير بلاغ يؤيد ما نقول ، فهـو يقول : « أخذ علينا العهود أن ندارى كل طائفة ، بقولنا نحن معكم ومن عصبتكم[1] » ؛ و يكرر

---

(١) البحر المورود ص ٩٠

هذا فى موضع آخر فيقول « أخذ علينا العهود أن ندور مع أهل زماننا ، وننخدع لهم كما ينخدعون لنا، ونتلون لهم كما يتلونون لنا[١] » ؛ فلا يبعد على مثل هذا الرجل ، أن يخادع ويداور . !

وربما اقتضانا الإنصاف أن نرد مسلكه إلى غرض نبيل ! هو رغبته فى إصلاح الأحوال عند الناس ، واعتقاده بأنه أقدر شيوخ الفقه والطريق على تحقيق هذا الإصلاح ، ولكنه أساء اختيار الطريق إلى تحقيق غايته ، ولقد صدق الدكتور زكى مبارك حين قال لى ـ فى لقاء عارض فى وزارة المعارف ـ : إن تلون الشعرانى يطعن فى صدق إيمانه بآرائه ، لأن المؤمن يقف وراء عقيدته ويذود عنها ، وقد يستشهد فى سبيلها راضياً مختارا ، لأن الإيمان لا يستقيم مع النفاق ...

مناقشة زكى مبارك فى موقفه من الشعرانى :

كتب الدكتور فصلا ممتعا ، حاول فيه أن يؤرخ من كتب الشعرانى ، المجتمع المصرى فى عصره . ! وهذه لفتة فيها ذكاء ، ولكنها لا تخلو من مآخذ ، إذ حسب الشعرانى أن يكون من الزهدة المعرضين عن الحياة ومباهجها ، لتكون أحكامه على عصره مثار الشكوك والريب ، لأن الحياة أوسع من أن تحدها هذه النظرة المتشائمة الجانبية القاصرة ، بل إن من شأن

(١) المصدر السالف ١٧٣ ـ ٤

الزهد أن يتأدى بصاحبه إلى تمجيد الماضى على حساب الحاضر ، وتصوير الجو الذى يعيش فيه فى صورة قاتمة معتمة ، تتغير فيها الحقائق بالمبالغة والإفراط ، وما هكذا يكون الأمر فى تأريخ الظواهر ، ومن هنا وجب الحذر من أحكام الشعرانى ، وحسب الناظرين فى كتبه ، ما تضمنته من معلومات ووقائع ، و إغفال حكمه عليها ضرورة يقتضيها منهج البحث العلمى .

ولكن الدكتور يعتبر الصوفية وصّافين صادقين لمجتمعاتهم ، فهو يقول فى جرأة : « أهم ما تحدثنا به كتب الصوفية ، هو وصف ما كان عليه المجتمع من الأخلاق ، لأنهم لا يتحدثون إلا عن فضائل تشهاها المجتمع ، أو فريق من المجتمع ، ولا يصفون من الرذائل إلا ما تألم منه المجتمع أو بعض المجتمع ، فهم الوصافون الصادقون لما كان فى المجتمع من خير وما كان فيه من فساد[1] » ولا ندرى كيف يتأتى الصدق فى وصف المجتمع ، عند من لا يتحدث إلا عن فضائل تشهاها المجتمع ، أو فريق من المجتمع ، ولا يصف إلا رذائل تألم منها المجتمع ، أو بعض المجتمع .. ! ؟ إن الصوفية فى رأينا هم آخر من يجوز الأخذ بأقواله تأريخا للمجتمع فى عصرهم[2]

بل لقد عرض الدكتور لحديث الشعرانى عن وقائعه مع الجن ، ثم عقب عليها قائلا إنه كذاب ! ووصف عقليته فى موضع آخر بأنها عقلية عامية .

---

(١) التصوف الإسلامى ج ١ ص ٣٤٠

(٢) انظر شرائط المؤرخ فى كتاب « منهج البحث التاريخى » لزميلنا الدكتور حسن عثمان.

ووصف حـديث الشعرانى عن نفسه بأنه يدل على حمق[١] ، وإن عاد فنفى عنه الحمق ، عنـد الحديث على خبرته بأهل زمانه[٢] ، ولا ندرى كيف يتأتى لكذاب عامى التفكير يوصف بالحمق ، أن يكون مؤرخا يطمئن الدكتور إلى صدق أحكامه .. !

التفسير السيكولوچى لكذب الشعرانى

إن ما يرويه الشعرانى عن نفسه ، من اتصال بالأرواح وتعامل مع الجن ، وما يتحدث به عن كراماته وخوارقه ، قد يغرى بالشك ، ويدفع إلى تكذيبه. كما كان الحال فى موقف الدكتور منه . ولكن تَفَهُّم الشعرانى فى ضوء المنطق العقلى وحده ، يبدو لنا ضلالا مبينا ، لأن الرجل كان طوال حياته يعيش فى جو دينى مشبع بالتصوف ، استمد منه غذاء عقله ، وأشبع به جوعة قلبه ، ومن هنا كان لابد من النظر إلى نزعات نفسه وتيارات فكره ، فى ضوء هذا الجو النفسى الذى كان يتنسم نسماته ، وقد انتهت به حياته إلى إيمان عميق مفرط هيمن على منطق العقل فى تفكيره ، وتأدى الإسراف الممعن فى هـذا إلى ما يسميه علماء النفس بالمدركات الخاطئة Illusions والأوهام المجسمة Hallucinations ، فأدرك أشياء (موجودة بالفعل) ولكنه أدركها على غير

---

(١) التصوف الإسلامى ج ٢ ص ٢٨٣
(٢) المصدر السالف ج ٢ ص ٣٠٢

وجهها الصحيح ، وتصور وجود أشباح مجسمة ، لم يكن لها وجود إلا فى وهمه، وبهذا انقلبت الحقائق فى نظره ، أو اختلق الكثير منها اختلاقا ، فبدت الأشياء التى لا تتضح فى عينه ، أشباحا للجن أو الأرواح ، أو كانت هذه من خلق تصوره ، لأنها تساير نزعات قلبه ووساوس نفسه ، وتلتئم مع الجو المعنوى الخفىّ الذى يستغرقه ، ومن السهل على من يكون كذلك ، أن يتمثل الجن فى خاطره ، فتبدو صورها فى ناظره ، أو تتحول صور الأشياء إلى أشباح للجن والعفاريت وما إليها بسبيل .. ! ومن ثَمّ يستجيب لمرآها بتصرفات لا يرتقى إليها الشك فى صدق حقائقها ، فإن حدثنا عن وقائعه مع سكان هذا العالم الخفىّ واستجاباته لسلوكها إزاءه ، قلنا إنه مخدوع وليس بخداع ولا كذاب ... وبمثل هذا تفسر أحاديثه عن تعامله مع الجن وأرواح الموتى ، وما يرويه عن نفسه من كرامات وخوارق عادات ، مما لا يتمشى مع منطق العقل ، ولا يساير المألوف من سنن الطبيعة . أما اتهامه بالكذب أو الخداع ، فربما كان أدخل فى باب التجنى، منه فى حسن التأويل ، الذى تبرره حياة الرجل وسمعته .

وإن صح هذا التأويل ، قوّى من موقفنا فى رفض أحكامه على عصره، واعتباره مؤرخا لمجتمعه .

أثره فى المصريين

أنشأ الشعرانى فرقة الشعرانية فيما أشار « لين » E. Lane و « شاخت » Schacht ، ولكننا أشرنا إلى أن ابنه الذى تولى أمر هـذه الفرقة بعده ،

لم يحسن قيادتها ، فاضمحل أمرها ، وإن كانت قد نهضت بعـده قليلا ، ثم عادت إلى الركود والاضمحلال ، واختفى اسمها بعد .. !

ولهذا صح ما يقوله المستشرق ڤولرز ، من أن حـديث البعض عن فرقة اسمها الشعرانية ، لا يعبر عن الواقع تعبيرا دقيقا .

ومع هذا فقد كان الشعرانى ـ فيما عرفنا ـ واسع النفوذ عنـد معاصريه على اختـلاف طبقاتهم ، عميق التأثير فى الأجيال التى أعقبته ، هيمن على ساسة البلد وعلمائها ووجوهها ، وسيطر على قلوب أهليها فى عصره وما تلاه ، لأن المشتغلين بالتصوف ممن يزاولون الرياضات والمجاهدات ، ويطمحون إلى المشاهدات والمكاشفات ، والمنصرفين عن الدنيا ، الزاهدين فى فتنها ومباهجها ، والقانعين بالإقبال على عبادة الله ، ولو فاتهم الحرص على العلم بأحكام دينه ، كل هؤلاء يجدون فى بطون العشرات من كتب الشعرانى ، ثروة طائلة من الآداب والأخلاق والمعارف والأسرار ، ومن هنا استطاع الشعرانى وأمثاله أن يطبعوا بطابعهم روح العصر الذى عاشوا فيه ، والأجيال التى أعقبتهم ، وكان للشعرانى فى هـذا القدح المعلى ، بفضل إنتاجه الخصب ، وإشراق صفحته الوضاءة ، ولما انقضى العصر العثمانى ، وأقبلت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨م) ، اتصـل المصريون بأوربا ، وأخذت مدنيتها تتسلل إليهم ، وتفشو فى حياتهم ، وتغريهم بمقاومة التقاليـد التى ورثوها عن الشـعرانى

وأمثاله . . . ومع هذا فإن فى الشعب المصرى إلى يومنا الحاضر ، طبقة تمثل سواده الأعظم ، هى قطعة من الماضى السحيق ، تخلفت عنه ، والزمان ماض فى طريقه قدما لا يبطئ فى مسيره ولا يثقل رجله ، ليمكن المتخلفين عنه من اللحاق به ، فظلت هذه الطبقة تحيا على تراث الماضى السحيق وتقاليده ، وتمثل فى حياتها آثاراً تخلفت عن الشعرانى وأمثاله منذ قرون طوال

* * *

وبعدُ ، فهذا هو « الشعرانى » إمام التصوف فى عصره ـ كما قلنا فى صدر هذا الكتاب ، بل أعظم صوفى عرفه العالم الإسلامى كله ، كما لاحظ الأستاذ « نيكلسون » من قبل ، ونرجو أن يكون هذا البحث المتواضع ، قد أضاء الجوانب المظلمة من حياته ، وتوخى العدالة فى الحكم على آثاره ، فكشف عن المجهول من آفاق عظمته، فى غير إسراف يبعده عن طبيعة البشر .

بضع ملاحظات على بعض المصادر

١ ـ أغفل « بروكلمان » ذكر (ا) لواقح الأنوار القدسية فى مناقب العلماء والصوفية (وهو الطبقات الوسطى) (ب) ذيل لواقح ... إلخ (وهو الطبقات الصغرى) (حـ) لواقح الأنوار القدسية فى معرفة (بيان) قواعد الصوفية (ولعله النفحات القدسية فى (بيان) قواعد الصوفية) والثلاثة موجودة بدار الكتب الملكية بالقاهرة (مخطوطات) .

٢ ـ أورد بروكلمان وفهارس دور الكتب فى مصر : (ا) ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى ـ وموازين القاصرين ـ المريد الصادق مع فريد الخالق ـ باعتبارها ثلاثة كتب ، وهى رسالة واحدة مخطوطة ، ولها اسمان آخران رسالة فى بيان جماعة سموا أنفسهم بالصوفية ... ـ صحبة المريد الصادق مع من يريد معرفة الخالق ـ (ب) الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من العلوم ـ الجوهر المصون فى علوم كتاب الله المكنون ـ لعلهما كتاب واحد (مخطوط) .

٣ ـ تنبيه المغترين (لا المفترين كما يذكرها « شاخت » ـ فى (أواخر ـ أوائل) القرن العاشر ، على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر (مخطوط) .

٤ ـ (ا) الدرر المنثورة فى بيان ز بد العلوم المشهورة مخطوط (كتب عنه Schmidt انظر بروكلمان) (ب) كشف الحجاب والران عن (وجه) أسئلة الجان كتب عنه Flügel فى مجلة الدراسات الشرقية ج ٢٠ ص ٣ و Kern فى مجلة .MSOS ج ١١ ص ٢٦٥ و «ماكدونالد» كما عرفنا (ح) الجواهر والدرر الوسطى ـ انظر مجلة هسپيرس .Hesp الإسپانية ج ١٢ ص ١٢٥ و ١٠٢٩ (ى) لواقح (لوامع) الأنوار فى طبقات (السادة) الأخيار (هو الطبقات الكبرى فى جزءين) كتبت عنه مجلة المراسلات الإفريقية عام ١٨٨٤ ص ٣٦٧ وترجمه إلى التركية « على السيواسى » (هـ) درر الغواص على فتاوى (مناقب) سيدى على الخواص ـ انظر مجلة الدراسات الإسلامية ج ٢ ص ١٣٢٩ (و) اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر ـ أنظر مقال Flügel فى المجلة السالفة ج ٢١ ص ٢٧١

(ز) الميزان (الخضرية أو الشعرانية وهى الصغرى) ـ أنظر مقال جلدتسيهر فى المجلة السالفة ج ٣٨ ص ٦٧٨ وما بعدها ، وقد ترجمه إلى الفرنسية Dr Perron تحت عنوان Balance de la Lois Musulmane ou ésprit de la legislation Islamique et divergences de ses quatres rites jurisprudentiels.

وقد أشرنا فى صلب الكلام وهوامشه ، إلى غير هذا من أبحاث وضعها المستشرقون عن الشعرانى ، فى الإنجليزية والفرنسية والألمانية ونحوها ، وشكراً

جزيلاً للزميلين العزيزين : « الدكتور عبد المنعم أبو بكر » أستاذ التاريخ القديم المساعد ، و « الأستاذ مخاطره الشافعى » اللذين استعنت بهما على فهم ما كتب عن الشعرانى فى الألمانية وحسبنا الآن أن نذكر من أبحاث المستشرقين :

1 — Brockelmann, Gesch. d. Ar. Litt.
ج ٢ ض ٣٣٥ ــ ٣٣٨ وفى الملحق ج ٢ ص ٤٦٤ ــ ٤٦٦
2 — Vollers, Ash - Sha'rani. (Ency. of Religion and Ethics
3 — J. Schacht, Al - Sha'rani, (Ency. of Islam.)
4 — D. B. Macdonald, (1) The Religious Attitude & Life in Islam
فى المحاضرة الخامسة .
(2) Aspects of Islam فى المحاضرة الثامنة
5 — R. Nickolson, A Litterary Hist. of the Arabs.

وغير هؤلاء ممن ورد ذكر أبحاثهم فى صلب الكلام أو هوامشه .

وبعد ، فشكراً جميلاً للذين أعانونى على الاتصال بكتب الشعرانى ــ مخطوطةً ومطبوعة ــ وأخص بالذكر منهم الأستاذين عبد المنعم عمر ومحمد سعيد عامر وغيرهما من أمناء المكتبة الملكية وموظفيها . م

فهرس الـكتاب

للمؤلف

١ — الشعرانى إمام التصوف فى عصره .... أغسطس ٩٤٥

٢ — الفلسفة والإلهيات ـ ترجمة عن «ا. غليوم» فى كتاب تراث الإسلام أكتوبر ١٣٦

٣ — قصة الـكفاح بين روما وقرطاجنة .... نوفمبر ٩٣٦

٤ — الأحلام عند مفـكرى الإسلام ـ دراسة مقارنة ـ يصدر فى أوائل سبتمبر ١٤٥

٥ — التنبؤ بالغيب عند مفـكرى الإســلام يصدر فى سلسلة الجمعيــة الفلسفية فى أواخر سبتمبر ٩٤٥

٦ — العلم بالغيب ـ ترجمة عن « شيشرون قدمت ملحقا لرسالة الدكتوراه ـ سيطبع قريبا

٧ — التصوف فى مصر إبان الحـكم العثمانى ـ رسالة ماجستير ـ ستطبع بعد